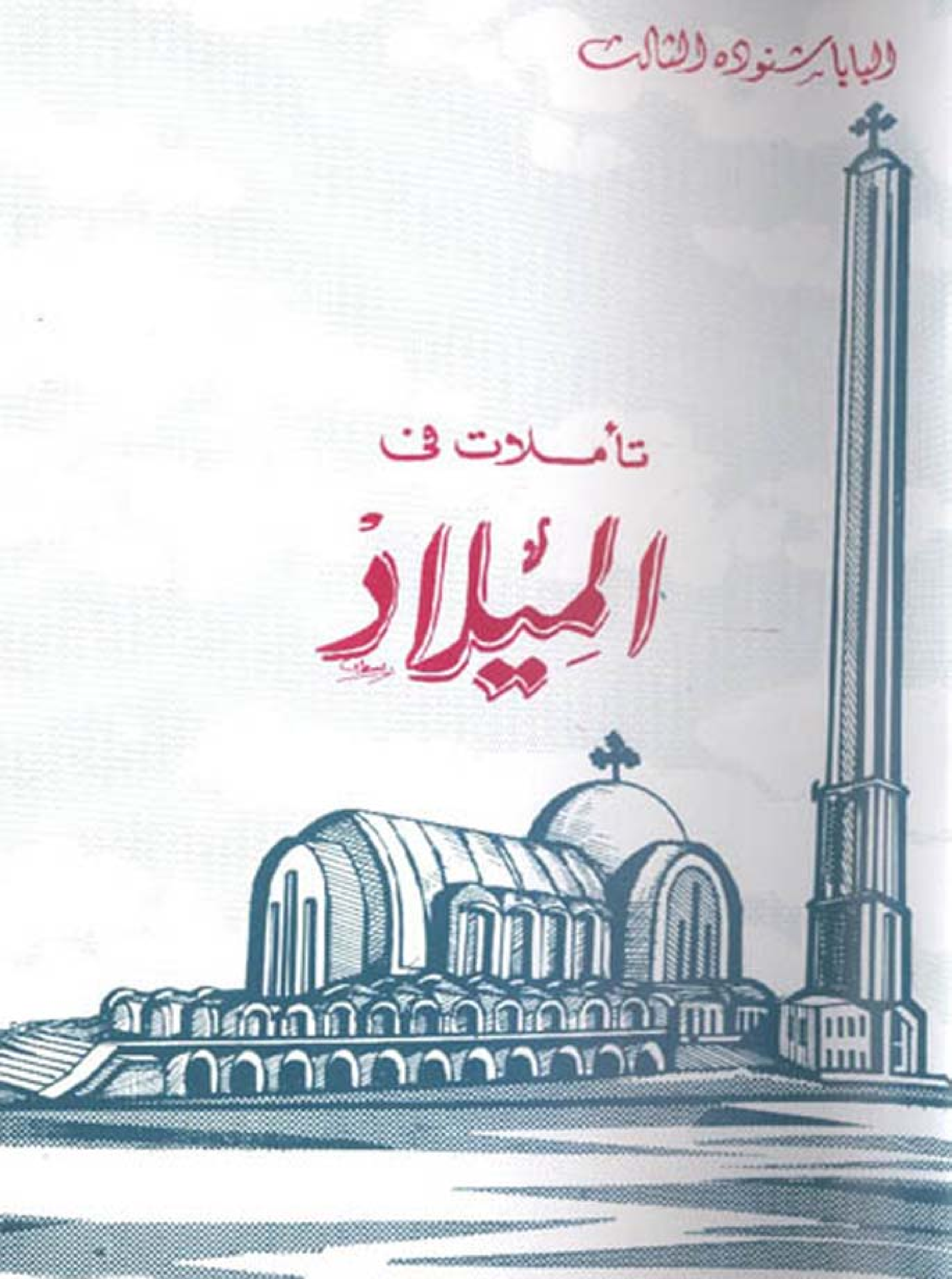
htm



www.st-mgalx.com


البابا شنوده الثالث
تأملات في
الميلاد

البابا شـــنودة الثـالث

تأملات فى الميــلاد

Contemplation on
The Nativity of Our Lord

by

H.H. POPE SHENOUDA III

2nd Reprint

الطبعة الثانية

القاهرة فى ديسمبر ١٩٨٠

كيهك ١٦٩٧



قداسة البابا شنوده الثالث

H.H. Pope Shenouda III

فهرست



باسم الآب والإبن والروح القدس
الإله الواحد آمين

تصـــدير

المحاضرات التى بين يديك ، ألقيت فى القاعة المرقسية بدير الأنبا رويس خلال سنتى ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ ، وقد سبق نشرها . وها نحن نعيد نشرها مرة أخرى .

وسيصدر بعدها إن شاء الله موضوع آخر هو :

أســئلة عن الميــلاد

يشمل أهم الأسئلة التى يلقيها الناس حول الميلاد ، وأسباب التجسد الإلهى ، وسلسلة الأنساب ، وحقيقة النجم الذى ظهر للمجوس ، وقرابة العذراء لأليصابات ... إلخ . وماذا قال الآباء القديسون فى الإجابة عن هذه الأسئلة وأمثالها .

إننا نريد أن نضع أمامك صورة ، نحاول أن تكون متكاملة ، عن ميلاد الرب ، فى روحياته ، وفى علامات الإستفهام المحيطة به ...

ونطلب من روح الرب أن يرافق كل نقطة ،
وأن يجعلها منه ، لا منا ...

شــنودة الثالث



أخلى ذاته

« فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى المسيح يسوع أيضا ، الذى اذ كان فى صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله ٠

لكنه أخلى ذاته آخذا صورة عبد ، صائرا فى شبه الناس ٠ واذ وجد فى الهيئة كانسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت ، موت الصليب » ٠

(فيلبى ٢ : ٥ ـ ٨)

مقدمة

ان السيد الرب ، اذ أخلى ذاته وأخذ شكل العبد ، لم يقتصر ذلك على حادثة الميلاد فحسب ، بل شمل ذلك حياته كلها التى لا تدخل تحت حصر .

ميلادالمسيح المتواضع كان مجرد مظهر من مظاهر اخلاء الذات وسنحاول أن نتتبع اخلاء الرب لذاته فى كل ناحية ... ونحاول أن ندرك الأسباب التى من أجلها أخلى ذاته ... ثم نأخذ لأنفسنا عظة عملية ، محاولين أن نطبق عنصر الاخلاء فى حياتنا ...

وعلينا أن نفهم بالدقة : ما هو معنى اخلاء الذات ...

انه لم يخلها طبعا من جوهره ولا من طبيعته ولا من لاهوته الذى لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين . بل أخلى ذاته من الأمجاد المحيطة به ومن عظمة السماء .

وسنشرح هذا وغيره بالتفصيل فى الصفحات المقبلة ...

جميل بنا أن نلاحظ أن هذا الاخلاء لم يكن اقلالا من شأن الرب ، وانما هو عظمة جديدة فى مفهومها . كان الناس يفهمون العظمة فى مظاهر خارجية . أما عظمة من يخلى ذاته ويأخذ شكل العبد ، فلم يكن أحد يتصورها . هذه قدمها الرب لنا ...

أخلى ذاته فى ميلاده

عجيب هو الرب فى اتضاعه ، عندما أخلى ذاته فى ميلاده .

● **نزل الى العالم هادئا بدون ضجة ، ودخله فى خفاء لم يشعر به أحد ... لم يحدد من قبل موعد مجيئه .**

وهكذا ولد فى يوم مجهول ، لم تستعد له الأرض ولا السماء ، ولم يستقبله فيه أحد . يوم ميلاده كان نكرة بالنسبة الى العالم ، مع أنه من أعظم الأيام اذ بدأ فيه عمل الخلاص الذى تم على الصليب .

لو نزل الرب الى العالم فى صفوف ملائكته ، على سحابة عظيمة ، أو فى مركبة نورانية يحيط به الشاروبيم والسارافيم ... وقد ارتجت له السموات وكل قوى الطبيعة ... أو لو أن السماء احتفلت بميلاده ، ليس بنجم بسيط يظهر للمجوس ، بل اهتزت له كل نجوم السماء وكواكبها ... لو حدث ذلك ، لقلنا انه أمر يليق بالرب ومجده ...

لو أن شخصا كان مسافرا الى مكان ما ، لأرسل الرسائل قبلها ، فيستقبله الأحباء والأصدقاء والأقارب والمعارف

والمريدون ، وربما يستاء اذ قصر أحد فى انتظاره أو فى استقباله ...

أما السيد المسيح فدخل الى العالم فى صمت ، بعيدا عن كل مظاهر الترحيب ، فى غير ضجيج ، وبطريقة بسيطة هادئة ... دخل العالم بنكران عجيب للذات ، أو فى اخلاء عجيب للذات وكل الذين استقبلوه جماعة من الرعاة المساكين، ثم المجوس ...

● هناك أشخاص يحبون الضجيج وبهرجة الترحيب فى دخولهم وفى خروجهم ، لأن فاعليه ميلاد المسيح لم تغيرهم بعد ...

لم يخل المسيح ذاته فى هدوء مجيئه الى العالم فحسب ، بل فى كل ظروف ميلاده . فكيف كان ذلك ؟

● **ولد من أم فقيرة يتيمة** ، لم تكن تجد من يعولها . عهد بها الكهنة الى يوسف ، خطبوها له لتعيش فى كنفه .

وولد فى قرية هى « الصغرى بين رؤساء يهوذا » (متى ٢ : ٦)

وسكن فى الناصرة التى يعجب الناس ان أمكن أن يخرج منها شئ صالح (يو ١ : ٤٦) . ودعى ناصريا

وعاش فى بيت نجار بسيط ، حتى كانوا يعيرونه قائلين « أليس هذا هو ابن النجار » (متى ١٣ : ٥) .

وعاش ثلاثين سنة مجهولا ، كفترة تبدو ضائعة فى التاريخ . حتى الرسل لم يعتنوا أن يكتبوا عنها شيئا تقريبا

... عاش فيها دون أن يلتفت اليه أحد ، مخفى لا يعـرف عنه أحد شيئا ، كأى شخص عادى ... بينما تلك السنوات الثلاثون هى فترة الشباب والقوة التى يهتم فيها كل انسان بذاته ، ويود فيها كل شاب أن يظهر وأن يعمل عملا ...

● أخلى الرب ذاته فعاش فى التطورات الطبيعية كسائر البشر .

قضى فترة كرضيع وكطفل . ولم يستح من ضعف الطفولة

... بما فيها من احتياج الى معونة آخرين ، وهو معين الكل!

احتاج الى رعاية أم ، وهو راعى الرعاة ! احتاج الى امرأة من صنع يديه ، تحمله على يديها ، وتهتم به ، وهـو المهتم بكل أحد . وتغذيه ، وتعطيه ليأكل ويشرب !

ومن العجيب فى طفولته ، أنه أخلى ذاته من اسـتخدام قوته . **فهرب من أمام هيرودس، بينما روح هيرودس فى يده !** هرب من هيرودس وهـو الذى خلق هيرودس ، وأبقاه حتى ذلك اليوم . عجيب هذا الأمر ... عجيب أن نرى القـوى القادر على كل شىء ، يهرب مثل سائر الناس الذين يهربون من الضيق ! يهرب من القتل وهو الذى يملك الحياة والموت ... وجاء الى مصر ، وعاش فيها سنوات . ولم يرجع الا بعد أن هدأ الجو ، بينما كان يستطيع أن يفلت من الرجل بطريقة معجزية أو يقضى عليه ...

أخلى ذاته ، فاحتمل ضعف البشرية وهو المنزه عن كل

ضعف . وسمح لنفسه أن يجـوع ويعطش ويتعب وينام ، كسائر البشر ...

عجيب أن يقال عن الرب انه في آخر الاربعين يوما « جاع أخيرا » (متى ٤ : ٢) . وعجيب أن هذا الينبوع الذى روى الـكل يقول للسامرية « اعطيني لأشرب » (يو ٤ : ٧) ، ويقول عـلى الصليب « أنا عطشـان » (يو ١٩ : ٢٨) . وعجيب أن يقال عنه انه تعب وجلس عند البئر (يو ٤ : ٦) وانه نام في السفينة (لو ٨ : ٢٣) .

● أخلى الرب ذاته كل هـذا الاخـلاء ، ليخـزى الذين يفتخرون ويتكبرون .

وكأنه يقول لكل هؤلاء : انني لم أولد في قصر ملك ، ولا على سرير من حرير ، وانما في مزود للبهائم . ولـكني سأجعل هـذا المزود أعظم من عروش الأباطرة والملوك ... سيأتيه الناس من مشارق الشمس الى مغاربها ليتباركوا منه.

ليس المكان هو الذى يمجد الانسان ، ولكن الانسان هو الذى يمجد المكان . والعظمة الحقيقية انما تنبع من الداخل.

فليحـل الرب في أى مكان ، ولو كان مكانا للبهـائم ، وليولد في أية قـرية ولو كانت هى الصـغرى في يهوذا . ولكنه سيرفع من شأن كل هذا ... يولد في هذه الحقارة ، ويحول الحقارة الى مجد .

يولد من فتـاة فقيرة ، ويجعلها أعظم نساء العالم ...

ويولد في بيت رجل نجار بسيط ، فيحوله الى رجل قديس مشهور في الكنيسة ...

أخلى ذاته من مظاهر العظمة

أخلى ذاته من صفة الملك :

كان يمكن لمعلمنا الصالح أن يأتى كملك . ولو أتى كذلك ، ما كان أحد ينكر عليه أنه ملك . فهو من سبط يهوذا صاحب المملكة ، ومن نسل داود الملك . ولكنه أخلى ذاته من الملك ، وهو ملك الملوك (رؤ ١٧ : ١٤) ...

لم يأت فى هيئة ملك . لأن اليهود فى تفاخرهم بالعظمة البشرية ، كانوا ينتظرون أن يأتى المسيا كملك عظيم ، لأنهم كانوا يظنون أن عظمة الملوك هى التى تخلصهم . وكان رأى الرب أن يحطم هذه الفكرة أيضا . **فلم يخلصهم بعظمة الملوك ، بل بتواضع النجار الناصرى ، الذى استهانوا به قائلين « أليس هذا هو ابن النجار ؟! » (متى ١٣ : ٥) « أليس هذا هو النجار ابن مريم ؟! » (مر ٦ : ٣) .**

أتى كنجار بسيط ، ولم يأت كملك . ولما سعى اليه الملك ، رفضه وهرب منه . ولما « رأى انهم مهتمون أن يأتوا ليختطفوه ويجعلوه ملكا ، انصرف الى الجبل وحده » (يو ٦ : ١٥) .

ورضى أن يحاكم أمام عبيده ، أمام بيلاطس وهيرودس ، وأمام أعضاء مجلس السنهدريم ٠٠٠ وكان يقول « مملكتى ليست من هذا العالم » (يو ١٨ : ٣٦) ٠

أخلى ذاته من صولجان الملك ومن الكرامة المقدمة للملوك ، مفضلا أن يحاط بمحبة القلوب الطائعة لقلبه ، وليست الخائفة من سطوة سلطانه ٠٠٠

اخلى ذاته من كرامة الرئاسة :

لم يطلب أن يكون رئيسا لتابعيه ، أو سيدا ٠٠٠ وانما صديقا لهم ٠ وهكذا قال لتلاميذه « لا أعود أسميكم عبيدا ٠٠٠ لكننى سميتكم أحباء » (يو ١٥ : ١٥) ٠ وخاطبهم فى احدى المرات قائلا « أقول لكم يا أصدقائى ٠٠٠ » (لو ١٢ : ٤) ٠

وأخلى ذاته لدرجة أنه انحنى وغسل أرجلهم ٠٠٠

لم يعامل الناس كعبيد من صنع يديه ٠٠٠ بل كانت تربطه بهم رابطة الحب لا رابطة الرئاسة ٠ ان البشر هم الذين يستهويهم حب الرئاسة والسلطان ٠٠٠ أما معلمنا المتواضع **فكان يريد قلوب الناس لا خضوعهم ، وكان يريد محبتهم لا تذللهم** ٠ ولم يقم نفسه رئيسا للناس بل صديقا ٠

لذلك كان محبوبا لا مخافا ٠ يهابه الناس عن توقير ، لا عن رعب ٠ **لم يرد أن تكون له الرهبة التى ترعب الناس ،**

بل **الحب الذى يجذب الناس** • وهكذا أمكن للأطفال أن تلتف حوله ، وأمكن ليوحنا أن يتكىء على صدره •

ان كل من يحب العظمة ، لم يتمتع بفاعلية الايمان بعد •
قال الأنبـــا أنطونيـوس مرة لأولاده « يا أولادى ، أنا لا أخاف الله » • فأجابوه « ان هذا الكلام صعب يا أبانا » • فقال لهم « ذلك لأنى أحبه • والمحبة تطرد الخوف الى خارج » (ايو ٤ : ١٨) •

ان أهل العـالم يحبون الســلطة والنفوذ والسيطرة • يريدون أن يخافهم الناس ، ولو عن قهر • أما المسيح الهنا فيقول « من يحبنى يحفظ وصاياى » • يعنى أن حفظ وصاياه يكون عن حب وليس عن خوف •••

حتى فى صنع المعجزات •••

أخلى الرب ذاته ، فلم يستخدم قوته على صنع المعجزات الا فى الضرورة القصوى •

لم يستخدم قوته من أجل ذاته ، ولا من أجل منفعة خاصة
لم يســتخدم لاهوته ليمنع عن نفســه الجوع أو العطش أو التعب أو الألم • رفض أن يحول الحجارة الى خبز لسد جوعه الشخصى ، بينما بارك الخمس خبزات من أجل اشفاقه عـلى الناس •

لم يستخدم قوته ليبهر الناس بالمعجزات ، ولا من أجل الايمان • وعندما كانوا يطلبون منه معجزة لأجل (الفرجة) لم يكن يقبل • بل كان يبكتهم قائلا « جيـل فاسق وشرير

يطلب آية ولا تعطى له ٠٠٠ » (متى ١٢ : ٣٩) ٠ لم يبهر الناس بالمعجزات مثلما فعل سيمون الساحر ، ومثلما فعلت عرافة فيلبى ، ومثلما سيحدث فى الأزمنة الأخيرة من المسيح الدجال والوحش والتنين ٠٠٠

رفض أن يلقى نفســه من على جنــاح الهيكل ، لتحمله الملائكة ٠ ويرى النــاس المنظر فيندهلون ويؤمنــون معجبين بعظمته !٠٠ رفض ذلك ، لأنه أخلى ذاته من اعجاب الناس ٠ ان معلمنا الصالح لم يحط نفسه بالمجد ، لأنه أراد أن يلتف الناس حول التواضع وليس حول المجد ٠

ومعجزة كحادثة التجلى التى كان يمكن أن تبهر الجماهير، لم يشأ أن يراها كل الشعب ، ولا حتى كل تلاميذه الاثنى عشر ، بل رآها ثلاثة فقط ، وأوصاهم ألا يظهروها ٠٠٠كان زاهدا فى كل هــذه الأمور التى يبحث عنها من يريدون أن يظهروا ذواتهم ٠٠٠ بل أكثر من هــذا انه بعد كل معجزة تبهر البصر كان يخفى تلك المعجزة بعمل من أعمال الضعف البشرى أو بكلام عن آلامه ٠٠٠ أو يطلب ممن حدثت معــه أن يخفيها ٠٠٠

وحتى من أجل الايمان لم يشأ أن يبهر الناس بالمعجزات٠ أراد أن يكون ايمانهم بدافع من الحب والاقتناع وليس بسبب المعجزات ٠ وما الدليل على هذا ؟

دليلنــا انه كان يطلب الايمان قبــل المعجــزة ، وليس كنتيجة لها ٠ وكثيرا ما كان يسأل الذى يجرى معه المعجــزة

« أتؤمن ؟ » ، أو يقول له « ليكن لك حسب ايمانك » • وان كان يؤمن قبلا تحدث معه المعجزة ••• ولذلك قيل عنه أنه في وطنه « لم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم ايمانهم » (متى ١٣ : ٥٨) • كان الايمان يسبق المعجزة • وكانت المعجزة نتيجة للايمان وليس سببا •

وكثير من معجزات السيد الرب كانت أعمال رحمة وحب وكانت لها أهداف روحية ••• تتبعوا عنصر الحب والحنان في معجزات الرب يظهر لكم واضحا وجليا • وهكذا نرى في معجزة اقامة العازر أنه بكى قبل أن يقيمه • ان الحب الذى كان يعتصر قلبه ، ظهر أولا في عينيه الدامعتين ، قبل أن تظهر قوته في عبارة « هلم خارجا » • وكثير من معجزات الشفاء كانت تسبقها عبارة « فتحنن يسوع » أو « أشفق » أو ما شابه ذلك •••

ولم يستخدم معجزاته في الدفاع عن نفسه ، أو في الانتقام من مضطهديه وشاتميه • أهانوه بكل أنواع الاهانة ، وأشبعوه شتما وتعييرا • وكان يستطيع أن يجعل الأرض تفتح فاها وتبتعلهم ، أو تنزل نار من السماء وتفنيهم • ولكنه لم يفعل • كان قد أخلى ذاته من استخدام هذه القوة التي فيه •

وعاش بغير لقب ، وبغير وظيفة :

● **عاش السيد المسيح بغير لقب ، وبغير وظيفة رسمية في المجتمع ، وبغير اختصاصات في نظر الناس** ••• ماذا

كانت وظيفة المسيح فى نظر المجتمع اليهودى ، أو فى نظر الدولة ؟! لا شيء ... كان أمامهم مجرد رجل يجول من مكان الى آخر ، يعمل ويعلم ، دون أن يستند الى وضع رسمى ...

● **لم يكن من أصحاب الرتب الكهنوتية فى نظر الناس ،** لأنه لم يكن من سبط لاوى ولا من أبناء هارون . فقد كانت أمه ويوسف النجار من سبط يهوذا .

ووصل اخلاؤه لذاته فى هذه الناحية ، أنه عندما شفى الرجل الأبرص ، قال له « اذهب أر نفسك للكاهن ، وقدم القربان الذى أمر به موسى » (متى ٨ : ٤) . يالها من عبارة مؤثرة للغاية !! تصوروا رئيس الكهنة الأعظم ، منشىء الكهنوت ومؤسسه ، ومنبع كل سلطة كهنوتية ، يقول للأبرص « اذهب أر نفسك للكاهن » !!..

وماذا عنك أنت يارب ، أنت الكاهن الى الأبد على طقس ملكى صادق ؟ لماذا ترسلنى الى كاهن ، وأنت راعى الرعاة وكاهن الكهنة ؟! ما أعجبك فى اخلائك لذاتك ! تتصرف كمن لا سلطة له ، وأنت مصدر كل سلطة !!

● **وعاش السيد المسيح بدون أى مركز اجتماعى ، ولم تكن له أية صفة رسمية على الاطلاق . حتى فى وضعه كمعلم...**
لم يكن من طوائف الكتبة والفريسيين المؤتمنين على التعليم فى ذلك الحين ، ولا من جماعة الكهنة الذين من أفواههم

تطلب الشريعة (أر ١٨ : ١٨) ، ولا من الشيوخ ولا من البارزين في المجتمع ...

وعلى الرغم من كل ذلك ، ملأ الدنيا تعليماً ، وكانوا يلقبونه بالمعلم ، والمعلم الصالح ، ودعى معلما حتى من أصحاب المكانة العلمية كالكتبة والفريسيين ...

وهكذا أرانا كيف يمكن أن يعيش الشخص بلا لقب ، ومع ذلك يعمل أكثر من أصحاب الألقاب !..

وفي حياته كمعلم ، عاش وقد أخلى ذاته من كل شيء :

لم يكن له مكان يعلم فيه ...

أحيانا كان يعلم وهو جالس على الجبل ، وأحيانا يكلم الناس وهو واقف في سفينة ، وهم جلوس على الشاطىء ... وأحيانا كان يعلم وهو في وسط الزروع والبساتين ، يتأمل مع تلاميذه زنابق الحقل وطيور السماء ... وأحيانا كان يعلم في الخلاء ، في موضع قفر ، في البرية . وأحيانا في الطريق ... وعلى العموم لم يكن له مكان خاص للتعليم ، لا مركز ثابت ولا مكان ثابت ... بل لم يكن له أين يسند رأسه (لو ٩ : ٥٨) .

واذ أخلى ذاته من الإرتباط بمكان معين ، أصبح له كل مكان ...

عجيب أن الله الذى ملأ السموات والأرض ، لم يكن له أين يسند رأسه ... عندما ولد يقول الكتاب « لم يكن له

موضع فى البيت » (لوقا ٢ : ٧) • وطول فترة تجسده على الأرض لم يكن له مسكن معين • يذهب أحيانا الى بيت مريم ومرثا ، وأحيانا الى بيت مريم أم يوحنا الملقب مرقس، وأحيانا الى بيت سمعان ، وأحيانا الى بستان جثيمانى ... ما أعجب قول الكتاب « ومضى كل واحد الى بيته ، أما يسوع فمضى الى جبل الزيتون » (يو ٨ : ١) ...

والذين كانوا يتبعونه ، كانوا يسيرون وراء المجهول... لا يعرفون لهم موضعا ولا مركزا ، ولا مالية معينة ، ولا عملا محددا • عندما قال السيد لمتى اللاوى « اتبعنى » ، تبعه متى ... ولو سألته « الى أين ؟ » لما عرف كيف يجيب... ولو سألته ماذا ستعمل ؟ لوقف أمام علامة استفهام لا جواب لها • لقد أراد الرب لتلاميذه أن يخلوا ذواتهم أيضا ...هم مجرد تلاميذ ، لا يعرفون لهم عملا سوى أن يتبعوا المسيح ، الذى لا يعرفون له وظيفة ولا عملا رسميا ولا مكانا ثابتا...

يحيط به جماعة من المساكين :

وكما أخلى المسيح ذاته ، أحبه الذين أخلوا ذواتهم ، أو الذين لا ذوات لهم • فأحاطت به مجموعة من الفقراء والمساكين والمزدرى وغير الموجود ... جماعة من جهال العالم وضعفاء العالم وأدنياء العالم (اكو ١ : ٢٧ ، ٢٨) • وهكذا اختار تلاميذه : جماعة من الصيادين الجهلة ، كما اختار واحدا من العشارين المرذولين •

والذين أحاطوا به كانوا من عامة الشعب: الأطفال الذين لا يعتد بهم أحد ، والخطاة والعشارين الذين يحتقرهم الناس، والنساء أيضا اللاتي لم تكن لهن مكانة في المجتمع اليهودي ... وهكذا كانت نسوة كثيرات يتبعنه (لو ٢٣ : ٢٧). ... وحول صليبه وقفت النسوة لا شيوخ الشعب ... وبكت عليه بنات أورشليم (لو ٢٣ : ٢٨) ولم يبك عليه أعضاء مجلس السنهدريم !..

عاش انسانا بسيطا بلا مركز وبلا لقب ، يحيط به أشخاص مجهولون بلا مركز وبلا لقب أيضا ...

وحتى لقبه الطبيعي « ابن الله » ، لم يستخدمه كثيرا . وكان يستبدله في غالب الأحيان بلقب « ابن الانسان » !..

عاش وسط الشعب ، لا وسط الرؤساء . وكان قريبا من الصغار ، بعيدا عن الكبار المعتبرين ، يحبه الشعب ويضطهده الرؤساء ... وحسنا تنبأ عنه داود قائلا « الأعزاء قاموا علي » (مز ٥٤ : ٣) « الرؤساء اضطهدوني بلا سبب » (مز ١١٩ : ١٦١) .

حتى الذين استضافوه كانوا من البسطاء أو من المحتقرين فدخل بيت متى ، ولم يدخل بيت بيلاطس ولا بيت هيرودس ودخل بيت زكا ، ولم يدخل بيت حنان ولا بيت قيافا ...

عاش فقيرا :

أخلى ذاته من المال والجاه ، فعاش فقيرا لا يملك شيئا

وهو مغنى الكل . حتى أنهم لما طلبوا منه الجزية لم يجد ما يعطيه لهم ، فطلب من بطرس أن يلقى الشبكة ويصطاد ويدفع لهم (متى ١٥ : ٢٧) .

وعاش مرفوضا ...

« الى خاصته جاء ، وخاصته لم تقبله » (يو ١ : ١١) كنور أشرق فى الظلمة ، والظلمة لم تدركه (يو ١ : ٥) ، بل أحب الناس الظلمة أكثر من النور ... (يو ٣ : ١٩).

وأصبح الاتصال به تهمة ، والتلمذة له عارا ...

حتى ان نيقوديموس عندما أراد مقابلته ، قابله فى الخفاء ، سرا وليلا (يو ٣ : ٢) وحتى أن اليهود فى اهانتهم للمولود أعمى اذ آمن بالمسيح بعد شفائه ، **شتموه قائلين له أنت تلميذ ذاك** (٩ : ٢٨) وهكذا أصبحت التلمذة لذاك الناصرى من أنواع السب ووصمة عار . وجاء الوقت الذى **أصبح فيه تلاميذه مغلقين على أنفسهم فى العليقة لا يستطيعون الخروج منها** ، خوفا من مسبة انتسابهم لذاك الناصرى ...

وهكذا وجدنا عملاقا عظيما كبطرس تبرأ من المسيح ومن الانتساب اليه ، وأخذ يلعن ويحلف قائلا انه لا يعرف الرجل (مر ١٤ : ٧١) .

وعاش مضطهدا فى حياته ...

ان السيد الرب لم يخل ذاته من المجد اللائق أن يحيط بلاهوته ، **بل أخلى ذاته حتى من مجد البشرية أيضا** . فكان

محتقرا ومخذولا من الناس ، رجل أوجاع ومختبر الحزن ٠٠ محتقر فلم يعتد به » (أش ٥٣ : ٢٠ ، ٣)

أمسكوا مرة حجـارة ليرجموه (يو ١٠ : ٣١) ٠ ومرة أخرى « أخرجوه خارج المدينة وجاءوا به الى حافة الجبل حتى يطرحوه الى أسـفل (لو ٤ : ٢٩) ٠٠٠ وطاردوه فى كل مكان ، محاولين أن يصطادوه بكلمة ٠٠ ولم تكن له كرامة فى وطنه ٠

وتقبل كل هذه الاهانات الكثيرة ، وهو الذى لم يفارق لاهوته ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين ٠٠٠

قالوا له انك سامرى وبك شـيطان ! وقالوا عنـه انه أكول وشريب خمر ، ومجدف ، وضال ، ومضل ٠ قالوا انه ناقض للشريعـة وكاسر للسـبت ، وانه ببعلزبول يخـرج الشـياطين ٠ فبماذا أجاب المسيح ؟ ما أجمل قول القداس الغريغورى « من أجـلى احتملت ظلم الأشرار ٠ بذلت ظهرك للسياط ، وخديك أهملت للطم » ٠٠٠

كيف أن هذا الذى تجثو أمامه كل ركبة مما فى السماء وما على الأرض ، الذى ليست السموات طاهرة قدامه ، كيف انه « لم يرد وجهه عن خزى البصاق » ؟! الجواب الوحيد انه اخلى ذاته ٠

وهكذا ضربوه ولطموه ٠٠٠ ما أعجبه فى اخلائه لذاته ! يصـل الأمر بخالق السماء والأرض أن يسـمح لانسان من

تراب أن يصفعه على وجهه ، ويقبل ذلك ويسكت !٠٠ « ظلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه ٠ كشاة تساق الى الذبح ، وكنعجة صامتة أمام جازيها ، فلم يفتح فاه » (أش ٥٣ : ٧)

ووصلت الاستهانة باله الكل الذى أخلى ذاته ، الى أنهم فضلوا عليه رجلا قاتلا ولصا هو باراباس ، طالبين أن يصلب المسيح ٠ بل وصلت المهانة باله الكل الى أن أصبح ثمنه ثلاثين من الفضة ، ثمن عبد !!

انه لم يأخذ فقط شكل العبد ،وانما بيع أيضا بثمن عبد ٠٠٠ استغل الناس اخلاءه لذاته ٠٠٠ فلم يمتنع عن اخلاء ذاته ، من أجل الناس ٠

وكما عاش مضطهدا فى حياته ، عاش مضطهدا بعد مماته أيضا ٠ فحتى قبره كانت تحرسه الجنود المدججة بالسلاح ، خائفين ان (ذلك المضل !!) يقوم ، « فتكون الضلالة الأخيرة أشر من الأولى » (متى ٢٧ : ٦٣ ، ٦٤) ٠ وهكذا ختموا القبر بالاختام ، وضبطوه بالحراس ٠٠٠

وهكذا لاحقوه بالشتائم بعد موته ٠ وادعوا أن تلاميذه أتوا ليلا وسرقوه ٠ ودفعوا فى سبيل ذلك ما دفعوه من رشوة ٠٠٠

جرأة الشيطان عليه :

عبارة « أخلى ذاته » لم تنطبق عليه فى فترة ميلاده فحسب ، بل صاحبته طول حياته على الأرض فى الجسد ٠٠

من أجـل أنه أخلى ذاته ، تجـرأ الشيطان ليجربه .

ووصل الرب في اخلائه لذاته ، الى حد أنه ترك الحرية للشيطان ، يختار الزمان والمكان ونوع التجربة ... ما أشد على النفس قول الكتاب « ثم أخذه ابليس الى المدينة المقدسة، وأوقفه على جناح الهيكل » وأيضا « ثم أخذه ابليس الى جبل عال جدا » (متى ٤ : ٥ ، ٨) .

ابليس «يأخذه» «ويوقفه» حيثما يشاء !! يا للهول !.. ما أشد هذا الاخلاء للذات ... من يحتمله ؟!...

واذا بهذا الاله الكامل في معرفته المخبأة فيه كل كنوز العلم والمعرفة ، يقول عنه الكتاب ان الشيطان « أراه » جميع ممالك الأرض ومجدها !!.. « **أراه** » **؟! وهـو الذي يرى الخفيات والمكنونات ، ويعـلم حتى أعماق الفـكر وبواطن القلوب ...**

وهذه الممالك ، التي كلها من صنعه ، وكلها له ، والتي بيده بقاؤها وانحلالها ، يقول له الشيطان « لك أعطي هذه جميعها » ... **وتصـل الجـرأة بالشيطان أن يقول له** « **ان خررت وسجدت لي** » !!... هل الى هذه الدرجة تصل الجرأة ؟!

ما أعجبك يارب ! من يقدر على مثل هذا الاخلاء ؟!

واخيرا :

يعوزنا الوقت ان تحدثنا عن كل نواحي اخلاء الرب لذاته ... الأمثلة عديدة ، لا تحصى ... واخـلاء الرب لذاته له جـذور ممتدة في العهد القـديم ، اتركها حاليـا لتأملاتكم الخاصة ...

أخلى ذاته ورفع شأن أولاده

العجيب أن المسيح الهنا بقدر ما كان يخلى ذاته ، كان من الناحية الأخرى يرفع من شأن أولاده ...

أخذ شكل العبد ، وأعطانا أن نصير شركاء الطبيعة الالهية ! (٢ بط ١ : ٤) . حقا كما تقول تسابيح الكنيسة « أخذ الذى لنا ، وأعطانا الذى له » . وهكذا صارت لنا شركة معه (ايو ١ : ٦) . وصرنا « شركاء الروح القدس » (عب ٦ : ٤) ، (٢ كو ١٣ : ١٤) ، وشركاء فى الميراث (١ ف ٣ : ٦) ... وصرنا جسده ، وأعضاءه ، ثابتين فيه ، كالأغصان فى الكرمة ...

وصار الرب يقربنا اليه باستمرار ، ويرفعنا قدامه ...

ومع أنه ابن الله الوحيد ، الكائن فى حضن الأب منذ الأزل ، يسمى نفسه فى غالبية الأوقات « ابن الانسان » . ونحن نبى الانسان يدعونا أولاد الله ، ويكررها مرات عديدة ...

ويقول عنا اننا نور العالم ، ويطلب الينا أن يضىء نورنا قدام الناس (متى ٥ : ١٤ ، ١٦) . ويدعونا أصدقاء له ، وأحباء ، وخاصته التى يحبها حتى المنتهى . ولكن الأكثر من

هذا كله أن يسمح الرب بأن ندعى اخوته ! ويقول الكتاب « ومن ثم كان ينبغي أن يشبه اخوته فى كل شيء » (عب ٢ : ١٧) ويقول أيضا « ... ليكون هو بكرا بين أخوة كثيرين » (رو ٨ : ٢٩) .

من هم اخوته هؤلاء ؟! هم نحن التراب والرماد ...

لو أن أحد الآباء الكهنة فى أيامنا ، أرسل خطابا الى واحد من أولاده ، يقول له فيه « أيها الأخ العزيز » ، لصاح الناس : ما هذا التواضع العجيب واخلاء الذات ؟! كيف يدعو ابنه أخا له ؟! فماذا نقول اذن عن رب الأرباب عندما يدعونا اخوته ؟!..

بل أكثر من هذا ان الرب كثيرا ما يختفى لنظهر نحن . فعندما ظهر الرب لشاول الطرسوسى ودعاه ، فاستجاب وقال « ماذا تريد يارب أن أفعل » (أع ٩ : ٦) . حوله الرب الى القديس حنانيا فى دمشق قائلا له : « قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغى أن تفعل » . وظهر الرب فى رؤيا لحنانيا ، وكلمه من جهة شاول ، فشفاه وعمده ونقل اليه رسالة الرب .

ان عمل الكهنوت كله ، وكل أعمال الخدمة والرعاية ، هى أعمال للرب ، يعمل فيها الله فى اختفاء ، ويجعلنا نحن ظاهرين فى الصورة . هو يعمل فينا ، وهو يعمل بنا ، وهو يعمل معنا ، ولكنه غير ظاهر ، أما نحن فنبدو للناس كأننا نعمل . بينما « ليس الغارس شيئا ولا الساقى ، بل الله

الـذى ينمى » (اكو ٣ : ٧) • ولـكن الله كثيرا ما **يعطى** السلطان لأولاده ، دون أن يستخدمه مباشرة •••

والمطلوب من الخـدام الذين يعمل فيهم الله فى اختفاء ، أن يختفـوا هم ليظهر الله • فمجـد الله لا يجـوز أن يعطى لآخر • أما الخدام فعليهم أن يصلوا قائلين : « ليس لنا يارب ليس لنا ، ولكن لاسمك القدوس اعطى مجدا » (مز ١١٥ : ١)

وعمل المعجزات يعمله الله أيضا فى اختفاء عن طريق أولاده فيظهرون هم فى الصـــورة • أما الرب فيقول لهم فى حب « من يكرمكم يكرمنى » ••• الله يرسل السيدة العذراء ، أو الملاك ميخـائيل أو مارجـرجس أو غيرهم من القـديسين ، فيعملون معجـزات ، ويمجدهم الناس ، ويفرح الرب بأن أولاده يتمجـدون ••• بل كثيرا ما يقع انسان فى ضيقه ، فيصرخ مستغيثا « يامار جرجس » ، ويسمع الرب ، فيرسل مار جرجس ، فينقذه ••• أو ينذر انسان نذرا للعذراء ••• ويفرح الرب ويستجيب •••

بل ان الكنائس ـ وهى كنائس الله ـ سمح أن تبنى على أسماء أولاده • فنقول كنيسة العذراء ، وكنيسة مار جرجس، وكنيسة الأنبا أنطونيوس ، وكنيسة ما مرقس ••• وكلها بيوت للرب • ولكن الرب يفرح بأولاده •••

بل حتى شريعة الرب ينسـبها أيضا لأولاده أحيـانا ، فيقول « **ناموس موسى** » أو « شريعة موسى » ، بينمـا هى شريعة الرب لا غيره • ويقول الرب للابرص « قدم القربان الذى أمر به موسى » (متى ٨ : ٤) ويقول أيضا « موسى من

أجل قساوة قلوبكم اذن لكم أن تطلقوا نساءكم » (متى ١٩ : ٨) ، بينما الذى اذن هو الله ، والذى أمر هو الله • ولكن الله يرفع من شأن موسى ، ويضع اسمه بدلا من نفسه !••

من هم هؤلاء يارب الذين تريد أن تظهرهم ؟ انهم تراب ورماد ، عدم وليس لهم وجود ••• ولكنهم أحباؤك ، قديسوك •••

هناك عبارة عجيبة فى العهد القديم ، وقفت أمامها منذهلا لحظات طويلة ••• فى قصة الله مع موسى النبى • عندما ثقلت المسئولية على موسى ، قال له الرب « اجمع الى سبعين رجلا ••• فانزل وأتكلم معك هناك • وآخذ من الروح الذى عليك وأضع عليهم ، فيحملون معك ثقل الشعب » (عد ١١ : ١٦ ، ١٧) •

تصوروا ، الله يأخذ من الروح الذى على موسى ويضع عليهم ! وما هو الروح الذى على موسى ؟ أليس من عندك يارب ؟! كيف تأخذ منه ؟ وكيف تأخذ منه أمام كل هؤلاء الناس ؟ اعطهم انت من عندك مباشرة كما أعطيت لموسى ، انت يامصدر كل عطية صالحة ، انت مصدر الحكمة والتدبير والفهم •••كلا ، اننى آخذ أمامهم من الروح الذى على موسى، وأضع عليهم ، وأرفع شأن موسى فى أعينهم ••• مبارك انت يارب فى كل تدبيرك الصالح •

الله يحب أولاده ، ويريد أن يكرمهم ، فى السر والجهر •

بل ان الله كثيرا ما كان يسمى نفسه بأسماء أولاده •••

فيقول أنا اله ابراهيم ، واله اسحق ، واله يعقوب » (خر ٣ : ٦) • ما هذا يارب ؟ انهم هم الذين ينبغى أن ينتسبوا اليك ••• الله يختفى ويظهر أولاده • وهم بالمثل يختفون لكى يظهر هو • انها محبة متبادلة •

ومن المظاهر العجيبة فى اخلاء الرب لذاته ، ورفع شأن أولاده ، قصة عماد الرب من عبده يوحنا بن زكريا •••

يوحنا الذى لم يكن مستحقا أن ينحنى ويحل سيور حذائه ، يوحنا الذى قال له فى صراحة « أنا محتاج أن اعتمد منك » ، يقف أمامه رب المجد قائلا «اسمح الآن» ••• فسمح له ، واعتمد الرب منه ••• ياللعجب ••• رئيس الكهنة الأعظم ، وراعى الرعاة ، الكاهن الى الأبد على طقس ملكى صادق يأتى ليعتمد من يوحنا ، بينما تنفتح السماء ، ويسمع صوت الآب قائلا « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » (متى ٣ : ١٣ – ١٧) •

كانت معمودية يوحنا للتوبة ••• ولم يكن السيد المسيح محتاجا الى التوبة مطلقا لأنه قدوس بلا عيب • فلماذا اعتمد؟!

الذين جاءوا الى يوحنا ليعتمدوا جاءوا معترفين بخطاياهم (متى ٣ : ٦) • ولم تكن للرب خطايا يعترف بها ، ويتوب عنها ، ويعتمد بسببها ، حاشا ••• فلماذا اعتمد اذن •

انه من أجلنا أخلى ذاته وأخذ شكل العبد ••• وبنفس الوضع ، من أجلنا اعتمد • من أجلنا أخذ شكل الخطاة ، اذ وضع عليه اثم جميعنا ، ووقف يطلب عنا معمودية التوبة ، كنائب عن البشرية الخاطئة •••

لماذا أخلى الرب ذاته ؟

كثيرة هى الأسباب التى لأجلها أخلى ذاته ، نذكر منها :

١ ـ لكى نستطيع أن نتمتع به ونوجد معه :

لو أنه احتفظ بجلال لاهوته ، ما كان انسان يستطيع ان يقترب اليه ... ما كان تلميذه يوحنا يجرؤ أن يتكىء على صدره ، وما كان الأطفال يستطيعون أن يجروا نحوه ويحيطوا به ويهرعوا الى حضنه . وما كانت المرأة الخاطئة تستطيع أن تتقدم نحوه وتمسح قدميه بشعرها . بل ما كانت العذراء تستطيع أن تحمله على كتفها أو ترضعه من ثديها .

لو كان قد نزل فى قوة لاهوته ، لكان الناس يرتعبون منه ويخافون ... ان الرب عندما نزل على الجبل ليعطى الوصايا العشر ، « ارتجف كل الجبل جدا ، وصار كل الجبل يدخن ، وصعد دخانه كدخان الأتون » (خر ١٩ : ١٨) و « ارتعد الشعب ، ووقفوا من بعيد . وقالوا لموسى : تكلم انت معنا فنسمع . ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت » (خر ٢٠ : ١٨ ، ١٩) .

وهكذا رأى الرب ان يخلى ذاته ، حتى يمكن للناس أن يختلطوا به دون أن ترعبهم هيبته ، أو يصدهم جلاله ...

ان موسى النبى ، عبد الرب ، عندما قضى معه أياما على الجبل لأخذ اللوحين ، نزل فاذا وجهه يلمع لمعانا لم يستطع الناس أن يحتملوه « فخافوا أن يقتربوا اليه » . لذلك كان يضع على وجهه برقعا حتى يحتمل الشعب أن ينظروا اليه (خر ٣٤ : ٢٩ - ٣٥) .

فان كان هذا هو الجلال الذى أخذه موسى من عشرته للرب ، فماذا يكون جلال الرب نفسه ؟! وان كان الناس لم يحتملوا النور الذى على وجه موسى وهو نازل من عند الرب، فكيف تراهم كانوا يحتملون نور مجد الرب الذى قال عنه القديس يوحنا الرسول فى رؤياه ان « وجهه كالشمس وهى تضىء فى قوتها » (رؤ ١ : ١٦) ؟!

انه عندما ظهر لشاول الطرسوسى ، عميت عيناه من قوة النور . وظل فترة لا يبصر والقشور تغطى عينيه . فمن كان يحتمل أن يرى الرب فى مجده ... من يرى الرب ويعيش ؟!

وعندما أظهر الرب شيئا من مجد لاهوته على جبل التجلى، كان التلاميذ مرتعبين ، ولم يكن بطرس يعلم ما يتكلم به (مر ٩ : ٦) . ولما سمعوا الصوت من السحابة « سقطوا على وجوههم ، وخافوا جدا » (متى ١٧ : ٦) . كيف كان

ممكنا اذن أن يحتمل الناس مجد الرب لو لم يخل ذاته ؟ وهو أيضا من أجل انكاره لذاته ، لم يأخذ معه كل تلاميذه الى جبل التجلى ، ولم يعلن هذا المجد للجميع • وحتى الذين شاهدوا مجده « أوصاهم أن لا يحدثوا أحدا بما أبصروا الا متى قام ••• » (مر ٩ : ٩) •

ان اخفاءه لأمجاده مظهر آخر من اخلاء الذات •••

كان الرب يستطيع باستمرار أن يكون فى مجد التجلى بين النـاس ، ولـكنه لم يفعل • كان يريد أن يتمتعوا به ، ويختلطوا به ، لا أن يرهبوه •

ولماذا أيضا أخلى ذاته ؟

٢ ـ أراد أن يصحح فكرة الناس عن الألوهية :

لقد اقترب الينا حتى لا تظل فكرة الناس عن الألوهة ان الله جبار ومخيف • فأراد أن يجذبنا بالحب لا بالخوف •

أراد أن يدخـل قلوبنا عن طريق محبته ، لا عن طريق مخافته •

وهكذا نرى انه عنـدما رفضت احدى قرى السامرة ان تقبله ، رفض أن يسمع لتلميذيه اللذين طلبا أن تنزل نار من السـماء وتفنى تلك القـرية ، ووبخهما قائلا « لسـتما تعلمان من أى روح أنتما » (لو ٩ : ٥٥) • انه لم يشأ أن يرهب أهل السامرة بقـوته ، بل أن يكسبهم بمحبتـه •

وصبر معلمنا الصالح الى ان جاء الوقت الذى دخـل فيـه

السامرة بالمحبة والترحاب لا بالنار النازلة من السماء ٠٠٠

الله لا يريد أن يكون مخيفا بل محبوبا ٠ الناس بطبيعتهم ينفرون ممن يخافونه ٠ وقد يخضعون له فى ذل ، لكنهم ينفرون منه فى قلوبهم ٠٠٠

كان التلاميذ يريدونه قويا جبارا مهابا ، بحسب فهمهم البشرى ، لذلك انتهروا الذين قدموا الأطفال اليه ٠ أما هو، فقال لهم « دعوا الأولاد يأتون الى ولا تمنعوهم ٠٠٠ »٠ وأخذ الأولاد « واحتضنهم ، ووضع يديه عليهم وباركهم » (مر ١٠ : ١٣ ـ ١٦) ٠ وكذلك عندما انتهر التلاميذ الأعميين الصارخين نحوه ، وقف المسيح ،وناداهما ، وتحنن، ولمس أعينهما فأبصرا وتبعاه (متى ٢٠ : ٣٠ ـ ٣٤) ٠

٣ ـ وأخلى الرب ذاته ليعالج السقطة الأولى :

ماذا كانت السقطة الأولى سوى الكبرياء ، سواء سقطة الشيطان أو سقطة الانسان ؟! فالشيطان قال فى قلبه « أصعد الى السموات ، أرفع كرسى فوق كواكب الله ٠٠٠ أصير مثل العلى » (أش ١٤ : ١٣ ، ١٤) ٠ وعندما أسقط أبوينا الأولين أغراهما بقوله « تنفتح أعينكما ، وتكونان مثل الله ٠٠٠ » (تك ٣ : ٥) ٠

أخلى الله ذاته آخذا صورة العبد ، لكى يعطى درسا للعبد الذى أراد أن يرفع ذاته ويصير الها ٠ وهكذا صار ابن الله الوحيد ابنا للانسان ، ليعالج كبرياء الانسان ويجعله ابنا لله، بالاتضاع الذى اتضع به ابن الله ، وليس بكبرياء السقطة الأولى ٠٠٠

وهكذا فى اخلائه لذاته قيل انه شابه « اخوته » فى كل شىء ... (عب ٢ : ١٧) .

ان الرب عندما يسمى عبيده ومخلوقاته اخوة له ، انما يبكت الذين يعاملون اخوتهم كعبيد لهم ، أولئك الذين يؤلهون أنفسهم كلما ينالون مركزا أعلى من اخوتهم ... أما المسيح الهنا فلم يفعل هكذا ... لقد أخلى ذاته ، حتى استطاع بطرس أن يأخذه اليه وينتهره قائلا « حاشاك يارب ... » (متى ١٦ : ٢٢) . وسمح لكثيرين أن يجادلوه ويناقشوه ، بعكس كثيرين من البشر الذين لا يقبلون جدالا من أحد . وكان تلاميذه يحاورونه حسبما يريدون حتى سموهم « الحواريين » ...

وهكذا أخلى المسيح ذاته ، وصار كواحد منا ... أراد الانسان أن يرتفع ويصير مثل الله ، فنزل الله وصار مثل الانسان ... لكى ينيله بغيته ، ولكن بطريقة سليمة ، باتضاع الله لا بارتفاع الانسان ...

الانسان كان يريد أن يقف مع الله فى صف واحد ... فبدلا من أن يرتفع الانسان ليقف مع الله ، نزل الله ليقف مع الانسان . لكيما بنزوله يخجل الانسان وتنسحق نفسه ويتضع قلبه . وباتضاعه يقترب الى صورة الله المتضع . لقد أخذ الرب صورة العبد ، لكى يخفض من تشامخ السادة ...

فليتنا نتضع كلما تأملنا اخلاء الرب لذاته . ليتنا نتضع نحن الذين كلما أعطينا سلطانا فى أيدينا ، نريد أن تميد الأرض تحت أقدامنا ، وترتعش السموات من فوق ...

كيف نُخلى ذواتنا ؟

ان كان السيد المسيح قد أخلى ذاته – وفيه كل الملء – فنحن الفراغ ، كيف نخلى ذواتنا ؟! المسيح الذى فيه كل ملء اللاهوت ، أخلى ذاته وصار فى الهيئة كانسان · وهو الاله أخذ شكل العبد ، فالعبد عندما يخلى ذاته أى شىء يكون · ان سرنا بنفس النسبة فى اخلاء الذات ، ترى الى أين نصل ··؟!

عمق الاتضاع هو أن يسأل الانسان ذاته : ما هى ذاتى حتى اخليها ؟! وعندما يشعر الانسان أنه فراغ ، لا يوجد فيه شىء يخليه ، يكون حينئذ قد وصل الى كل الملء ···

النزول الى فوق :

ان المسيح الهنا – عندما أخلى ذاته – نزل من السماء الى الأرض ، وما أبعد المدى بين الاثنين ! ونحن الذين على الأرض ان أردنا أن ننزل منها فالى أين ننزل ، والى أين نهبط ؟ هل تعلمون الى أين ننزل ، والى أين نهبط ؟ **لا شك أنه فى هبوطنا ، انما نهبط من الأرض الى السماء · وفى**

نزولنا انما ننزل من تحت الى فوق ٠٠ !!

وهكذا نرى أن السيد الرب قد غير المقاييس البشرية ، **مقاييس العلو والهبوط** ٠٠٠ ألغاها كلها ، وغيرها الى العكس فقال « **من يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع** » (متى ٢٣ : ١٢) ٠ وقال فى نفس المعنى « من أراد أن يكون فيكم عظيما ، فليكن خادما ٠ ومن أراد أن يكون فيكم أولا ، فليكن عبدا » (متى ٢٠ : ٢٦) ٠ وقال أيضا « اذا أراد أحد أن يكون أولا ، فليكن آخر الكل وخادما للكل » ٠
(مر ٩ : ٣٥)

فالشخص الذى يرفع نفسه ، انما يهبط بمستواها الروحى ٠ كلما انتفخ ، يتضاءل ويتضاءل حتى يصبح لا شىء ٠٠٠ مثل هذا شبهه القديس أوغسطينوس بالدخان الذى كلما يرتفع ، تتسع رقعته ٠ وكلما تتسع رقعته يتلاشى حتى يصبح لاشىء ٠ وقد أخذ القديس أوغسطينوس هذا التشبيه عن داود النبى عندما قال « لأن الأشرار يهلكون ٠٠ فنوا كالدخان فنوا » (مز ٣٧ : ٢٠) « كما يذرى الدخان تذريهم » (مز ٦٨ : ٢) ٠

ان الذين يظنون انهم يرفعون ذواتهم ، انما (يرفعونها) الى أسفل ، لا الى فوق ٠ وهذا هو ما قصده الرب بقوله « من يرفع نفسه يتضع » ٠٠٠

اما المتواضعون فكلما يهبطون الى اسفل يرتفعون الى فوق أو ـ ان صح التعبير ـ **يهبطون الى فوق** ٠٠ **هم باستمرار**

ينزلون الى الأعالى الكائنة فى الأعماق ، لأن السيد الرب أعطانا فكرة جديدة عن العلو والعمق ، عندما أخلى ذاته ٠٠٠ **لقد علمنا أن العلو هو العمق ، وأن العلو يوجد تحت لا فوق** ٠٠٠ وأعطانا مقاييس للعظمة لم تعرفها البشرية من قبل ٠

ان المتضعين يرتفعون في هبوطهم ، والمتكبرين يهبطون في صعودهم ٠ وكل من يريد أن يصعد الى فوق ، ويلتصق بالله ، عليه أن ينزل الى الأرض ويقول مع داود « لصقت بالتراب نفسى » (مز ١١٩ : ٢٥) ٠ والهنا النـاظر الى المتواضعات « يقيم المسكين من التراب ، ويرفع البائس من المزبلة ، ليجلس مع رؤساء شعبه » (مز ١١٣ : ٧) ٠

والآن ، كيف تخلى ذاتك أيها الأخ :

ان لم تتمكن من اخلاء ذاتك بالتمام ، فعلى الأقل :

● **اخفض نفسك درجة عما تستحقه ، أو عما تظن أنك تستحقه** ، فى نظر نفسك ، وفى نظر الناس ٠ فى احـدى المرات رسم كاهن جديد ، وقضى فترة الاربعين يوما فى الدير . وفى تلك الفترة ـ وهو فى الدير ـ سألنى نصيحة له فى خدمته المقبلة ، فقلت له :

« كن ابنا وسط اخوتك ، وأخا وسط أولادك »

« انزل درجة باستمرار ، أو درجات ٠٠٠ وباســتمرار اسـلك بالبســاطة فى معاملة تلاميــذك ، وأولادك ، واخوتك الصغار ٠٠٠» ٠ واليك تدريب آخر

● **جرب كيف تتنازل عن حقوقك** ، وعما يليق بك من كرامة . وفى كل وقت ضع أمامك الآية التى تقول « المحبة لا تطلب ما لنفسها » (١ كو ١٣ : ٥) ... فلا تطلب أن تأخذ كل حقوقك ، ولا تطلب أن تدافع عن نفسك فى كل شيء ... ولا ترد التصرف بمثله ...

● **فى اخلائك لذاتك الق عنك الاشياء التى تضخمك** فى نظر نفسك أو فى نظر الناس . سواء كانت داخل نفسك أو من الخارج . عليك أن تتخلى عن مظاهر العظمة ، وتعيش بسيطا ...

وأعلم أن السيد المسيح فى اخلائه لذاته ، أعطانا فكرة ان العظمة لا تنبع من مظاهر خارجيـــة ، ولا من رفعة تحيط بالانسان . **وانما العظمة الحقيقية تنبع من الداخل** ، من كنه الذات النقية . كلما يصير القلب نقيا ، يأخذ صورة الله ، ويصير حقا على مثال الله حسبما خلق فى البدء ، على صورة الله وشبهه (تك ١ : ٢٦،٢٧) .

● **وفى كل نقاوتك وفضائلك ، أنسب الفضل كله لله لا الى نفسك** . اشعر دائما ان الله هو العامل فيك ، وليس أنت . وأشعر انك بدونه لا تستطيع أن تعمل شيئا

واذا اشتركت مع انسان فى عمل ، قدمه على نفسك فى كل شيء . اعطـه التفوق ، واعطـه الفضل ، وانسب اليـه ما تحارب بأن تنسـبه الى نفسك من العظمـة . وحاول أن تختفى ليظهر الله ، وليظهر اخوتك ...

● وان لم تستطع ان تخلى ذاتك ، فعلى الأقل لا تضع فوقها ثقلا جديدا من الارتفاع ، حتى لا تنوء نفسك تحت ثقل ارتفاعك ...

على الأقل ... لا تكبر ذاتك . لا تتحدث عن نفسك . لا تشرح للناس فضائلك . لا تسرد قصصا يفهمون منها شيئا عاليا عنك ...

ضع أمامك صورة المسيح فى اخلائه لذاته ...



مِلْءُ الزَّمَانْ

« ولكن لما جاء ملء الزمان ،
أرسل الله ابنه مولودا من امرأة
تحت الناموس » .

(غل ٤ : ٤)

ملء الزمان :

ان انتظار « ملء الزمان » هو درس روحي عميق نستفيد في حياتنا ، عنـدما نتأمل قصـة التجسد وكيف حـدد الله ميعادها .

عندما أخطأ آدم وحواء وعدهما الله بالخلاص ، قائلا لهم ان نسل المرأة سيسحق رأس الحيـة . وأنجبت المرأة قايين وهابيل وشيث ... ولم يحدث أن أحدا منهم سحق رأس الحية . بل ظلت الحية رافعة رأسـها في خطر ، حتى كادت تهلك العالم كله في أيام نوح ...

– فالى متى يارب ننتظر ؟ متى تحقق وعدك بالخلاص ؟

– « ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه » (أع ١ : ٧) . فاصبروا وانتظروا خلاص الرب . وكل شيء سيتم في حينه ، في ملء الزمان .

ان الله يعمـل في الوقت المناسـب ، حين يرى العمـل والظروف كلها تساعد على هذا العمل . الله طويل الأناة في تفكيره وفي تدبيره . ومعالجته للمشاكل ربما تأخذ وقتا ولكنها تكون قوية ونافعة .

متى نفذ الرب وعده بالخلاص؟ نفذه بعد آلاف السنين...

والحكمة فى ذلك سنوضحها فيما بعد . ولـكننا نقول الآن « ان يوما عند الله كألف سنة ، وألف سنة عنده كيوم واحد » (٢ بط ٣ : ٨) كل تلك الآلاف عند الله كأنها لحظة أو طرفة عين .

أما البشرية فانها شغوفة بأن تنهى كل شىء بسرعة ... حمى الاسراع هى حمى تنتاب البشر جميعا . تريد التعجل فى كل شىء ، ولا تستطيع صبرا على شىء . والناس يجرون وراء حاجاتهم جريا بدون تفكير فى غالبية الأوقات .

محبة العجلة والاسراع :

● وعد الرب ابانا ابراهيم بأن يكون له نسل ، مثل نجوم السماء ورمل البحر . وانتظر ابراهيم طويلا ولم يعط نسلا كنجوم السماء ... ولا حتى ابنا واحدا ... ماذا يارب ، هل نسيت مواعيدك ؟ **كلا ، اننى لم أنس ، ولكنك انت الذى تريد أن تتعجل الأمور قبل مواعيدها ...** « تقو وليتشدد قلبك ، وانتظر الرب » ...

وعاد ابراهيم ، فانتظر مدة أطول ، ولكن النسل لم يعط له ... فبدأ اليأس يتطرق الى قلبه ، ودفعه اليأس الى أن يدخل على جاريته هاجر ، وينجب منها ابنا ... ولكن مشيئة الله ظلت كما هى « بسارة يدعى لك نسل » (تك ١٧ : ٩) ... وعاد ابراهيم فانتظر سنوات أخرى ...

وحتى بعد ولادة اسحق ، مرت عليه عشرات السنوات ، ومازال الوعد الخاص بنجوم السماء ورمل البحر ينتظر التحقيق

... وعاد ابراهيم فاتخذ قطورة زوجة له . فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا (تك ٢٥ : ١ ، ٢)

... لم تكن مشيئة الرب فى كل هؤلاء ، فأعطاهم ابراهيم عطايا وصرفهم عن اسحق ابنه ... وانتظر حتى يحقق الرب وعده ، فى ملء الزمان ... بطريقته الهادئة ، التى لا تعجل فيها ...

● **ان اليأس من وعود الله ومواعيده يدعو الى التعجل . والعجلة تدعو الى استخدام الطرق البشرية . والطرق البشرية تتنافى مع طرق الله الصالحة . وسنأخذ مثلا لذلك رفقة زوجة اسحق :**

قال الرب لرفقة وهى بعد حبلى « فى بطنك أمتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب ، وكبير يستعبد لصغير » (تك ٢٥ : ٢٣) . والكبير هو عيسو ، يستعبد للصغير الذى هو يعقوب .

كيف هذا يارب ؟ كيف يستعبد الكبير للصغير ؟ طالما هو البكر فهو السيد ؟ فهل سيفقد البكورية ؟ وكيف يكون ذلك ؟

يجيب الرب : اتركوا هذه الأمور لى ، سأعالجها بطريقتى الخاصة ، الهادئة الصالحة . ومرت الايام والسنون ... أين

يارب وعدك ؟ يجيب : انتظروا ، سيتم كل شيء في حينه ، في ملء الزمان • ثم أتى اليوم الذى طلب فيه اسحق صيدا من ابنه عيسو ، لكى يباركه • وهنا لم تستطع رفقة أن تحتمل ، فقدمت حيلة بشرية لابنها يعقوب ليأخذ بها البركة عن طريق خداعه لأبيه •••

لماذا أسرعت رفقة ؟ ولماذا لم تنتظر الرب ؟ ولماذا لجأت الى الطرق البشرية الخاطئة التى لا تتفق مع مشيئة الله الصالحة ؟ انها حمى الاسراع وعدم انتظار ملء الزمان •••

وماذا كانت النتيجة ؟ كانت سنوات طويلة من المتاعب والآلام ، قضاها يعقوب شريدا هاربا وخائفا من أخيه ، ومتعبا من معاملة لابان السيئة وخداعه له • وقد سجل يعقوب ملخص حياته هذه بقوله « أيام سنى غربتى ••• قليلة ردية » (تك ٤٧ : ٩)

● **حنه أيضا كانت تطلب ابنا من الرب ، وكانت ضرتها تغيظها غيظا • وبدا كما لو أن الرب كان يسمع ، ويظل ساكتا !•••**

ومرت الأيام ، وحنه ماتزال عاقرا « وهكذا صار سنة بعد سنة ، كلما صعدت الى بيت الرب أن (ضرتها فننة) كانت تغيظها • فبكت ولم تأكل » (اصم ١ : ٧) • والرب يسمع ويرى ، ومع ذلك يبدو ساكتا لا يعمل شيئا !•• الى متى يارب لا تستجيب ؟ الى متى تحتمل بكاء حنه من اغاظة ضرتها ؟

يجيب الرب: انتظروا ملء الزمان • لا يتعبكم طول أناتي، بل الذى يتعبكم هـو حمى الاسراع • انتظروا ، فللانتظار فائدته •••

وكان من فائدة الانتظار أن حنه نذرت نذرا أن تعطى ابنها للرب كل أيام حياته • وقد كان ، وولد لها صموئيل•

ولد صموئيل فى ملء الزمان ، متأخرا جدا • ولكنه كان أفضل من جميع أولاد فننة ، ضرة أمه التى كانت تغيظها ••• من هم أولاد فننة ؟ اننا لا نعرف شيئا عنهم ولا حتى عن أسمائهم ، أما صموئيل فيعرفه الجميع •••

● **ليتنا اذن فى معاملاتنا للرب ، نصبر ، وننتظر ملء الزمان •**

ان الضيقات تحتاج إلى طول أناة ، حتى يرفعها الرب عنا فى الحين الحسن ، فى ملء الزمان ، بعد أن نكون قد أخذنا بركتها • ولكننا لا نفعل هكذا بل نضيق بسرعة ، ونصرخ « لماذا يارب تركتنا ؟ لماذا لم تسمع الصلاة ؟ » •••

قد يكون لك مريض تطلب شفاءه ، وتلح فى ذلك • وقد يبطىء الرب فى الاستجابة حتى يأتى ملء الزمان الذى يحدده للمريض حسب حكمته فى اختيار الأوقات • أما أنت فتضجر وتصيح فى ضجرك « ليه يارب ما بتسمعش ؟ أمال ايه لازمة الصلاة ؟ أمال ايه فايدة سر مسحة المرضى !! » وتعمل خناقة مع ربنا ••• ليس لأن الله قد أخطأ فى حقك ، وانما بسبب محبتك للاسراع وعدم انتظارك ملء الزمان •

ملء الزمان ، هو الوقت المناسب :

بنفس حكمة ملء الزمان ، انتظر الرب حتى يعد كل شيء لتجسده ، ثم بعد ذلك نزل الينا ، في الوقت المناسب ..

لم يكن هناك وقت مناسب أكثر من موعد مجيئه بالذات . كان كل شيء ممهدا ، وكل شيء معدا . لذلك كان عمل مجيئه قويا ، وكان تقبل الناس له سريعا ...

كانت النبوءات قد اكتملت ، وكذلك الرموز . وأعد الرب فهم الناس لها خلال مدى طويل ، حتى يستطيعوا أن يستوعبوها عندما يتم المكتوب ويتحقق الرمز ...

خذوا لذلك مثالا هو فكرة الذبيحة ، وفكرة الفداء :

كيف تدرج الله بهم من الذبيحة التي غطى آدم وحواء عريهما بجلدها ، الى ذبيحة هابيل التي « من أبكار غنمه ومن سمانها » ، الى فكرة ذبيحة الابن الوحيد التي تمثلت في اسحق ، الى شروط الذبيحة التي بلا عيب ، التي تحمل خطية غيرها وتموت عنه ... وتركهم آلافا من السنين حتى احتضنوا الفكرة واستوعبوها وصارت من بديهياتهم ...

ان الله طريقته هادئة وطويلة المدى ، ولكنها منتجة ونافعة ...

صدقوني . لو أن الله صبر كل تلك الآلاف من السنين حتى يجد العذراء الطاهرة التي تستحق أن يولد منها الرب،

والتي تحتمل أن يولد منها الرب ، لكان هـذا وحده سـببا كافيا .

وكان ينبغي أن ينتظر حتى يوجـد الرجل البـار الذى تعيش تلك العذراء فى كنفه ، ويحفظها فى عفتها ، ويحتمل أن تحبل من الروح القدس ، ويقبل الفكرة ، ويحمى الفتاة ، ويعيش كأنه أب لابنها فى نظر المجتمع ...

وكان ينبغي الانتظار حتى يولد الملاك الذى يعد الطريق قدام ملك الملوك ، أعني يوحنا المعمدان ذا الشخصية الجبارة والتأثير العميق . الذى يستطيع أن يقول « فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه ، هـو الذى يأتى بعدى ، الذى صـار قدامى ، الذى لست بمستحق أن أحـل سـيور حـذائه » (يو ۱ : ۲۷) « ينبغي أن ذاك يزيد ، وانى أنا أنقص . الذى يأتى من فوق ، هو فوق الجميع . الذى يأتى من السماء هو فوق الجميع ... » (يو ۳ : ۳۰ ، ۳۱) .

لعل أحدا يسأل : ولمـاذا لم يوجد الله كل هؤلاء منـذ زمن ؟ نجيب بأن الله لا يرغم البشر على البر والقداسة . انه ينتظر حتى توجد الآنية المستعدة بكامل ارادتها ...

هناك أسباب عديدة جدا توضح شيئا من حكمة الرب فى الانتظار حتى يأتى ملء الزمان . أوضحها هو اعداد العـالم كله وتهيئته لقبول فكرة التجسد وفكرة الفداء ...

وأخيرا ، عنـدما كمل كل شيء « لمـا جاء ملء الزمان ، أرسـل الله ابنـه مولودا من امرأة تحت الناموس ، ليفتدى الذين تحت الناموس ، لننال التبنى » (غل ٤ : ٤و٥) .

عِمَّانُوئِيل

الذى تفسيره « الله معنا »

« هوذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا »

(متى ١ : ٢٣)

« ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل »

(أش ٧ : ١٤)

الله معنـــــا :

جميل هذا الاسم الذى دعى به السيد المسيح فى مولده ، عمانوئيل ، الله معنا • اسم فيه الكثير من التعزية ، اذ فيـه الكثير من حب الله لنـا •

ان بركة عيد الميلاد هى هذه : أن نشعر أن المسيح هو الله معنا ، الله فى وسطنا ، ساكن معنا ، وساكن فينا •

الله فى الحقيقة يحب البشر جدا ، مسرته فى بنى البشر• يحب أن يهب الانسان لذة الوجود معه ، ويحب قلب الانسان كمكان لسكناه •

منذ أن خلق الانسان ، خلقه على صورته ومثاله • وأراد أن يجعله موضعا لسكناه ، أراد أن يسكن فى قلب الانسان ويحل فيه •

ومرت آلاف السنوات ، والهنا الصالح يحاول أن يجد له موضعا فى الانســان ، ومكانا يكون أهلا لسكناه • ولــكن الجميع كانوا قد زاغوا وفسدوا ، ليس من يعمل صلاحا ليس ولا واحد ••• لم يجد الرب فى قلوبهم موضعا يسند فيـه رأسه ••• فماذا عنك أنت أيها المبارك ؟

ان الله ينظر الى قلبك ويقول « هــذا هو موضع راحتى

الى أبد الأبد . ههنا أسكن لأنى اشتهيته » (مز ١٣٢ : ١٤).
وهكذا قال المرتل « ان الرب اختار صهيون • اشتهاها موضعا له » (مز ١٣٢ : ١٣) • وصهيون هذه هى نفسك التى يطلبها الله ، هى قلبك الذى يحب الرب أن يسكن فيه

مسكن الله مع النـاس :

ان سكنى الله مع الناس وفى وسطهم ، هى قصة قديمة • انها قصة خيمة الاجتماع ، التى فيها نرى الله يسكن وسط شعبه • أو هى قصة تابوت العهد ، رمز حلول الله بين الناس •

وكما أن سكنى الله مع الناس دلالة خيمة الاجتماع ، هى أيضا دلالة أورشليم السمائية فى الأبدية ، التى قيل عنها « هو ذا مسكن الله مع النـاس • وهو سيسكن معهم • وهم يكونون له شعبا • والله نفسه يكون معهم ، الهـا لهم » (رؤ ٢١ : ٣) •

وقد وضح هذا المعنى بتشبيه أقوى فى حبه :

قال انه الرأس ونحن الأعضاء ، وقال الرسول عنا ككنيسة اننا « جسد المسيح » • ولعل مثل هذا التشبيه هو ما قصده الرب بقوله « أنا الكرمة وأنتم الأغصان » (يو ١٥ : ٥) ، وطلب منا أن نثبت فيه كما تثبت الأغصان فى الكرمة • ولعل هذا أيضا هو جزء من الصلاة الطويلة التى صلاها فى بستان جثسمانى ، حيث قال عن تلاميذه « **أنا فيهم** ، وأنت فى ، ليكونوا مكملين الى واحد •••

عرفتهم اسمك وسأعرفهم ، ليكون فيهم الحب الذى أحببتنى به ، **وأكـون أنا فيهم** » (يو ١٧ : ٢٣ ، ٢٦) ٠ ان الله يريدك أن تثبت فيه وهو فيك ٠

الله الذى حل فى بطن العذراء لكى يأخذ منها جسـدا ، يريد أن يحل فى أحشائك لـكى يملأك حبا ٠٠٠ ان أفضل مسكن لله هو فيك ٠ الله لا يسر بالسماء مسكنا له ، بل هو واقف على بابك يقرع لكى تفتح له (رؤ ٣ : ٢) ٠ وهـو يعتبر جسـدك هيكلا لروحه القدوس يسكن روح الله فيـه (اكو ٣ : ١٦) ٠ وهـو يريد أن يأتى اليك ليقيم فيك مع الآب ٠ انظر ماذا يقـول « ان أحبنى أحـد يحفظ كلامى ، **ويحبه أبى ، واليه نأتى وعنده نصنع منزلا » (يو ١٤ : ٢٣)**

الله الذى يصر فى الحاح أن يسكن فيك ، يخاطب نفسك الحبيبـة اليـه بتلك العبـارات المؤثرة « افتحى لى يا أختى يا حمامتى يا كاملتى ، فان رأسى قد امتلأ من الطل ، وقصصى من ندى الليل » (نش ٥ : ٢) ٠ تصور ان الله واقف طول هذه المدة يقرع على بابك محتملا من أجلك الطل وندى الليل٠

سماؤه الحقيقية هى قلبك ، لذلك يطلب اليك على الدوام قائلا « يا ابنى اعطنى قلبك ٠٠٠ » (أم ٢٣ : ٢٦) ٠

انه يقول لـكل نفس بشرية ما قاله المرتل فى المزمور « اسمعى يا ابنتى وانظرى واميلى سـمعك ، وانسى شعبك وبيت أبيك ، فان الملك قد اشتهى حسنك ، لأنه هو ربك » (مز ٤٥ : ١٠ ، ١١) ٠

ان عبارة « الله معنا » لم يقصد بها أن يكون عمانوئيل معنا فى فترة تجسده فقط . وانما على الدوام .

وهكذا يقول الرب « ها أنا معكم كل الأيام والى انقضاء الدهر » (متى ٢٨ : ٢٠) . ويقول أيضا « ان اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى ، فهناك أكون فى وسطهم » (متى ١٨ : ٢٠). ويظل الرب معنا فى الأبدية التى لا تنتهى . وعن هذا الأمر قال للآب « أيها الآب ، أريد أن هؤلاء الذين أعطيتنى **يكونون معى ، حيث أكون أنا** » (يو ١٧ : ٢٤) . وقد طمأننا من جهة هذا الأمر فقال « وان مضيت وأعددت لكم مكانا ، آتى أيضا وآخذكم الى ، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضا » (يو ١٤ : ٣) . وهكذا قال يوحنا الرائى عن **أورشليم السمائية انها «مسكن الله مع الناس» (رؤ ٢١ : ٣)**

هل الى هذا الحد يارب ؟ نعم : أنا أريد أن أسكن معكم ، وأحل فيكم . أجد لذة فى عشرتكم وفى صداقتكم . أحب أن أكون فى وسطكم ... أنا عمانوئيل ، الله معكم ...

ان بركة عيد الميلاد تتركز فى عبارة (عمانوئيل) . الله معنا . **فان كنت يا أخى تحس أنك مع الله ، والله معك ، تكون قد تمتعت فعلا ببركة عيد الميلاد** ... لا تظن أن عيد الميلاد هو اليوم الذى انتهينا فيه من الصوم وبدأنا نفطر !! أو أن عيد الميلاد هو اليوم الذى عملنا فيه قداس العيد بطقوسه وألحانه الفرايحى ... عيد الميلاد من الناحية الروحية هو عشرة عمانوئيل ، الذى هو الله معنا ...

ان الله لا يريد منك شيئا غير قلبك ليسكن فيه ...

اوعى تفتكر ان ربنا عايز منك غير كده !! أبدا ، صدقنى . تقول له يارب ، سأعطى كل أموالى للفقراء ، يقول لك يا حبيبى أنا عايز قلبك ، عايز أسكن جواك . تقول له يارب ها أصوم وأبطل كل حاجه ، يقول لك أنا عايز قلبك ... تقول له : أنا ها أصلى طول الليل ، يقول لك : **ان صليت طول الليل ، ولم تعطنى قلبك ، فلا فائدة من صلاتك .**

كل عبادتك وصلواتك هى مجرد عبادة خارجية ، ان لم يكن لله مسكن داخل قلبك .

● **الله يريد أن يقيم صداقة معك .** يقول الكتاب « وسار اخنوخ مع الله ، ولم يوجد لأن الله أخذه » (تك ٥ : ٢٤) . منظر جميل أن نتخيل اخنوخ وهو سائر مع الله . وشعور عميق أن ندرك كيف ان الله لم يمكنه الاستغناء عن نوح ، فأخذه اليه ...

ان بولس الرسول يشرح مجيء الرب الثانى على السحاب ، واختطافنا اليه ، فيختتم هذا المشهد الجميل بقوله « **وهكذا نكون كل حين مع الرب** . لذلك عزوا بعضكم بعضا بهذا الكلام » (اتس ٤ : ١٧ ، ١٨) .

وهنا على الأرض نلمح ملاحظة قوية فى حياة القديسين ... **وهى أن القديسين كانوا يشعرون دائما بوجودهم فى حضرة الله . كانوا يرونه معهم على الدوام ، أمامهم وعن يمينهم ...**

انها عبارة متكررة على فم ايليا النبى اذ يقول « حى هو رب الجنود الذى أنا واقف أمامه » (امل ١٨ : ١٥) . من فينا شعر باستمرار أنه واقف أمام عمانوئيل الذى هو الله معنا ؟..

داود أيضا كان يحس على الدوام بوجود الله معه اذ يقول « رأيت الرب أمامى فى كل حين ، لأنه عن يمينى فلا أتزعزع » (مز ١٦ : ٨) . ما هذا يا داود ؟ هل الرب أمامك أم عن يمينك ؟ هو معى فى كل حين وفى كل موضع ، وفى كل اتجاه أشعر بوجود الله ...

● **ان الشخص الذى يشعر بأن الله أمامه ، لا يمكن أن يخطىء ، سيخجل حتما من الله** . ويقول « هو ذا الله يرانى وأنا أعمل ، هو ذا الله يسمعنى وأنا أتكلم » . الله له عينان كلهيب نار تخترقان الظلام . فلو اننا شعرنا ان الله كائن معنا ، لكان من المستحيل علينا أن نخطىء . ان خطايانا دليل على اننا غير شاعرين بوجوده معنا .

هناك حادثة حدثت مع القديس مار افرام السريانى تثبت هذا الأمر . فى احدى المرات هددته امرأة ساقطة أن تشهر به ان لم يطاوعها ويفعل الشر معها . فتظاهر بالموافقة على شرط أن يحدث ذلك فى سوق المدينة . فاندهشت المرأة وقالت له « كيف نفعل هذا فى السوق ؟! ألا تستحى من الناس وهم حولنا ؟! » فأجابها القديس « ان كنت تستحين من الناس ، أفما تستحين من الله الذى عيناه تخترقان أستار

الظلام ؟! » • وكان لكلام القديس تأثيره العميق فى المرأة فتابت على يديه •

هل تظن يا أخى ان الملحدين فقط هم الذين ينكرون وجود الله ؟! أؤكد لك أنك فى كل خطية ترتكبها تكون قد نسيت وجود الله أو أنكرته عمليا • لو كنت مؤمنا فعلا **بوجوده أمامك** ، لخجلت وخشيت ••• ان بعمانوئيل – الله معنا – يعطينا الطهارة والنقاوة والقداسة ، على الدوام •

● **واحساسنا بوجود عمانوئيل ، الله معنا ، يعطينا الشجاعة وعدم الخوف •**

لما بدأ يشوع خدمته ، قال له الرب « لا يقف انسان **فى وجهك** كل أيام حياتك • كما كنت مع موسى أكون معك، **لا أهملك** ولا أتركك ••• تشدد وتشجع ، **لا ترهب ولا ترتعب، لأن الرب الهك معك حيثما تذهب** » (يش ١ : ٥ ، ٩)

الانسان الذى يشعر بوجود الله ، يشعر بقوة عظيمة **معه** ، تزيد منه كل خوف وكل اضطراب ، وتهبه الثقة **والاطمئنان** ••• واحد يسألك سؤالا محرجا ، فتخاف ، **وتكذب** ! لماذا ؟ لأنك خائف ؟ ولماذا تخاف ؟ **الله معك** ؟•• **لا يقف انسان فى وجهك كل أيام حياتك** •••

خطية الخوف هى خطية عدم ايمانه ، عدم ايمان بعمانوئيل ورعايته • كان داود شجاعا • وكان يقول « الرب نورى وخلاصى ممن أخاف ••• » « وان نزل على جيش فلن

يخاف قلبي ، وان قام على قتال ففي هذا أنا مطمئن » (مز ٢٧ : ١ ، ٣) . « الرب عوني فلا أخشى، ماذا يصنع بي الانسان ؟ » (مز ١١ : ٦) . وفي هذه العبارات نلمح الفرق بين شجاعة القديسين وشجاعة أهل العالم . شجاعة أهل العالم سببها ثقتهم بقوتهم الخاصة ، وشجاعة القديسين سببها ثقتهم بوجود عمانوئيل ، الله معهم .

ظهر الله لبولس الرسول في رؤيا بالليل وقال له « لا تخف ، بل تكلم ولا تسكت ، لأني أنا معك . ولا يقع بك أحد ليؤذيك » (أع ١٨ : ١٠) .

بولس أخذ هذا العبارة ، وعاش بها ، ممتلئا من الايمان قوة ... وقف قدام ليسياس الأمير ، وفيلكس الوالي ، وأمام العزيز فستوس وأغريباس الملك . ولم يستطع أحد منهم أن يؤذيه . بل على العكس خافوا منه . لماذا خفتم أيها الملوك والأمراء من هذا الأسير المقيد بالسلاسل ؟ يجيبون : لم نخف منه ، وانما من الاله الذي معه ، من الرب الساكن فيه ... **بولس هذا في شخصه نستطيع أن نقدر عليه . ولكن لا نقدر عليه عندما يقول « أحيا لا أنا ، بل المسيح الذي يحيا في » (غل ٢ : ٢٠) .**

قبض ليسياس الأمير على بولس ، فماذا فعل به ؟ هل آذاه في شيء ؟ كلا . بل أعد قوة مسلحة تتكون من ٢٠٠ عسكري ، و ٧٠ فارسا ، و ٢٠٠ رامح ، فأركبت بولس ، وأوصلته سالما الى فيلكس الوالي بقيصرية ... (أع ٢٣ : ٢٣ ، ٢٤) صحيح يارب ، أنت معنا .

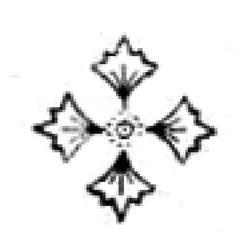
ووقف بولس أمام فيلكس « وبينما كان يتكلم عن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون ، ارتعب فيلكس ... (أع ٢٤ : ٢٥) .

ارتعب الوالى من أسيره المقيد ، من القـوة العجيبة التى تخرج منه ، من الله الذى معه ، من عمانوئيل ...

ووقف بولس أمـام الملك أغريباس ، فكانت النتيجة أن قال له الملك «بقليل تقنعنى أن أصير مسيحيا» (عأ ٢٦:٢٨) . وشهد عنه قائلا « ان هذا الانسان ليس يفعل شيئا يستحق الموت أو القيود » .

هذه فكرة عن عمل عمانوئيل الهنا ، عندما يكون معنا ، ويحطم كل قوة تقف أمام عبيده . فلا يقع بهم أحد ليؤذيهم.

هذا هو عمانوئيل الذى كان مع الثلاثة فتية فى أتون النار « فلم تكن للنار قوة على أجسامهم ، وشعرة من رؤوسهم لم تحترق ، وسراويلهم لم تتغير ، ورائحة النار لم تأت عليهم » (دا ٣ : ٢٧) ، حتى اندهل نبوخذ نصر قائلا « ليس اله آخر يستطيع أن ينجى هكذا » ...



مُصَالحة السَّماء وَالارض

اول شيء نتذكره في ميلاد الرب هو عمق محبته للناس. فمن أجل محبته لهم سعى لخلاصهم . ومن أجل محبته لهم أخلى ذاته ، وأخذ شكل العبد ، ونزل من السماء ، وتجسد وصار في الهيئة كانسان (في ٢ : ٧ ، ٨)

ان التجسد والفداء ، أساسهما محبة الله للناس ؛ فهو من أجل محبته لنا ، جاء الينا ؛ ومن أجل محبته لنا ، مات عنا . لهذا يقول الكتاب « هكذا أحب الله العالم ، حتى بذل ابنه الوحيد ... » (يو ٣ : ١٦) . انظروا ماذايقول « هكذا أحب ... حتى بذل » . نحن اذن في تجسده ، نذكر محبته التي دفعته الى التجسد . واعترافا منا بهذه المحبة ، نتغنى بها في بدء كل يوم ، اذ نقول للرب في صلاة باكر « أتيت الى العالم بمحبتك للبشر ، وكل الخليقة تهللت بمجيئك » .

قبل ميلاد السيد المسيح ، كانت هناك خصومة بين الله والناس . فجاء المسيح لكي يصالحنا مع الله ، أو جاء لكي نصطلح معه هو . قبل مجيئه كانت هناك خصومة بين السماء والأرض . ومرت فترة طويلة كانت فيها شبه قطيعة بين السمائيين والأرضيين : لا رؤى ، ولا أحلام مقدسة ، ولا أنبياء ، ولا كلام من الله للناس ، ولا ظهورات مقدسة ... ولا

أية صلة واضحة ... !! كانت الأرض بعيدة عن السماء طوال تلك الفترة ...

كانت خطايا الناس كليالى الشتاء : باردة ومظلمة وطويلة. وكانت تحجب وجه الله عنهم . وكانت الخصومة بينهم وبين الله ، يمثلها فى الهيكل الحاجز المتوسط الذى لا يستطيع أحد من الشعب أن يجتازه الى قدس الأقداس ... وزادت خطايا الناس ، واحتدم غضب الله عليهم ، واستمرت القطيعة . ولم يحاول البشر أن يصطلحوا مع الله .

ثم جاء السيد المسيح ، فأقام صلحا بين السماء والأرض، وأرجع الصلة بينهما . وبدأت تباشير الصلح تظهر. ورجعت العلاقات كما كانت من قبل وأكثر ...

ولكى أوضح الأمر لكم أقول : تصوروا أن دولتين متخاصمتين ، قد رجع الصلح بينهما ، فماذا تكون النتيجة : طبعا ترجع العلاقات كما كانت : يعود التمثيل السياسى بينهما ، وارسال السفراء والقناصل ... وفى ظل المودة الجديدة تبرم اتفاقية اقتصادية ، اتفاقية ثقافية ، اتفاقية عسكرية ... المهم أنه توجد علاقة وصلة . كذلك لنفرض أن شخصين متخاصمين قد اصطلحا ، فى ظل الصلح نرى العلاقات قد بدأت ترجع ، تعود التحيات والابتسامات والزيارات والأحاديث ، وتعود المودة.. هكذا حدث بين السماء والارض. **وبدات تباشير الصلح تظهر بمجىء المسيح الى الأرض أو فى خطوات وممهدات مجيئه ...**

تباشير الصلح

وأول شيء شاهدناه من تباشير هذا الصلح هو كثرة نزول الملائكة الى الأرض . فى مجيء المسيح وقبيل مجيئه ازداد ظهور الملائكة بشكل واضح . ظهورات متوالية ، فردية وجماعية ، كسفراء للرب . تهلل الملائكة بفرح عظيم، وأرادوا أن يشتركوا فى هذا الحدث العجيب وهو تجسد الرب وميلاده فظهر ملاك يبشر زكريا بولادة يوحنا (لو ١ : ١١) ، وملاك يبشر العذراء بولادة المسيح (لو ١ : ٢٦) ، وملاك ظهر ليوسف فى حلم يخبره بحبل العذراء (متى ١ : ٢٠) . وملاك ظهر للرعاة يبشرهم بالميلاد الالهى (لو ٢ : ٩) ؛ وملاك ظهر ليوسف فى حلم وأمره أن يهرب بالطفل يسوع وأمه الى مصر (متى ٢ : ١٣) . بالاضافة الى هذا جمهور الملائكة الذين ظهروا مسبحين الله وقائلين « المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة » (لو ١٢ : ٢٣ و١٤).

ان ظهور الملائكة بهذه الكثرة ، يدل على أن العلاقات بدأت ترجع بين السماء والأرض ، وتدل على فرح الملائكة بالخلاص المزمع ، واشتراكهم مع الأرضيين فى هذا الفرح .

وظهور الملائكة فى فترة الميلاد كان مجرد طلائع للملائكة الذين ملأوا العهد الجديد ... ملائكة كانوا يخدمون الرب على جبل التجربة (مر ١ : ١٣) ، وملائكة القيامة الذين ظهروا للنسوة ، ومثل الملاكين اللذين طمأنا الرسل وقت صعود

الرب (أع ١ : ١٠) ٠٠٠ كان هؤلاء جميعا طلائع نعرف بهم الملائكة غير المرئيين المحيطين بنا الآن ، الذين قال عنهم القديس بولس الرسول « أليس جميعهم أرواحا خادمة، مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص » (عب ١ : ١٤) ٠

ولم تكتف السماء في صلحها مع الأرض بظهور الملائكة ، بل امتدت الى الأحلام المقدسة بما فيها من توجيه ومن اعلان٠

اجتمع الأمران معا بالنسبة ليوسف الصديق : ملاك ظهر له في حلم يخبره بالحبل المقدس (متى ١ : ٢٠) ٠ وملاك ظهر له في حلم يأمره بالذهاب الى مصر (متى ٢ : ١٣) ٠ ثم بعد ذلك ظهر له ملاك في حلم في أرض مصر يأمره أن يرجع الى بلده لانه « قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي » (متى ٢ : ٢٠) ٠ ولما خاف أن يذهب الى اليهودية بسبب أن ارخيلاوس كان يملك هناك ، «أوحى اليه في حلم» أن ينصرف الى نواحي الجليل ، فذهب وسكن في الناصرة (متى ٢ : ٢٢)٠

هؤلاء الملائكة الذين ظهروا ليوسف الصديق في الأحلام، يعطوننا فكرة عن سمو مكانة العذراء ٠ فالعذراء ظهر لها الملائكة عيانا في صحوها ، رأتهم بعينيها وسمعتهم بأذنيها ، أما يوسف الصديق فرأى وسمع في الأحلام٠ان هذا يذكرنا بالفرق الكبير بين مركز موسى النبي ومركز هارون ومريم ، اللذين وبخهما الرب عندما تقولا على موسى ، فقال لهما « ان كان منكم نبي للرب ، فبالرؤيا استعلن له ، في الحلم أكلمه٠

وأما عبدى موسى فليس هكذا بل هو أمين فى كل بيتى · فما الى فم وعيانا أتكلم معه » (عدد ١٢ : ٦-٨) ·

لقد كلم الملائكة يوسف الصديق عن طريق الاحلام · وهكذا حدث أيضا مع المجوس ، بعد أن رأوا الطفل يسوع ، وقدموا له هداياهم « أوحى اليهم فى حلم أن لا يرجعوا الى هيرودس » فانصرفوا الى كورتهم (متى ٢ : ١٢) ·

وحديث المجوس يذكرنا بظهورات مقدسة أخرى صاحبت حدث الميلاد ، ونقصد أولا النجم الذى ظهر للمجوس ، وأرشدهم الى مكان المزود المقدس (متى٢:١-١٢) · **لم يكن** ذلك النجم نجما عاديا - كما شرح القديس يوحنا ذهبى‌الفم - بل كان قوة الهية أرشدتهم · ذلك أن مساره كان غير عادى، من الشرق الى الغرب · وكان يظهر حينا ، ويختفى حينا آخر ، ويقف حينا ثالث · كذلك ارشاده لمكان المزود معناه أنه هبط من علوه هبوطا يوضح المكان وبخاصة لأن الكتاب يقول عنه انه « وقف حيث كان الصبى » · هذا النجم كان ظهورا مقدسا ولم يكن نجما كباقى النجوم ···

وفى صلح السماء مع الأرض الذى جلبته بركة الميلاد لم تقتصر الصلة على ظهور الملائكة والاحلام المقدسة والظهورات المقدسة ، بل أيضا رجعت روح النبوة مرة أخرى ، ورجع عمل الروح القدس فى الناس وامتلاؤهم منه ·

نقرأ عن يوحنا المعمدان فى بشارة الملاك عنه انه « من بطن أمه يمتلىء من الروح القدس » (لو ١ : ١٥) • ونقرأ فى بشارة الملاك للعذراء قوله لها « الروح القدس يحل عليك ، وقوة العلى تظللك » (لو ١ : ٣٥) • ونقرأ فى زيارة العذراء مريم للقديسة اليصابات انه « لما سمعت اليصابات سلام مريم ، ارتكض الجنين فى بطنها ، وامتلأت اليصابات من الروح القدس » (لو ١ : ٤١) • ونقرأ عن زكريا الكاهن ـ بعد انقضاء فترة صمته ـ « وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ قائلا ••• » (لو ١ : ٦٧) • نقرأ أيضا عن سمعان الشيخ انه كان رجلا بارا « والروح القدس كان عليه وكان قد أوحى اليه بالروح القدس ••• » (لو ٢ : ٢٥ ، ٢٦) •

عجيب جدا هذا العمل الواسع للروح القدس فى الناس فى تلك الفترة المقدسة • وعجيب هذا الامتلاء من الروح القدس وهذا الحلول ، وهذا التنبوء أيضا••• لقد تنبأ زكريا الكاهن ، وتنبأت امرأته اليصابات ، وتنبأ سمعان الشيخ ، وتنبأت حنة بنت فنوئيل (لو ٢ : ٣٦) • وبدا أن الله رجع يتكلم فى أفواه الأنبياء ••• وكل ذلك كان من بوادر انتهاء الخصومة بميلاد المسيح ، أو كانت هذه هى تباشير الصلح الذى تم على الصليب •

وكان من تباشير الصلح أيضا رجوع المعجزات • والمعجزات دليل عمل يد الله مع الناس ••• كان انفتاح رحم اليصابات العاقر هو المعجزة الأولى • وكان صمت زكريا

الكاهن ثم انفتاح فمه بعد تسعة أشهر معجزتين أخريين ٠ وكانت معجزة المعجزات هى ولادة السيد المسيح من عذراء ٠ وكان ارتكاض الجنين بابتهاج فى بطن اليصابات تحية للجنين الاله الذى فى بطن العذراء هو معجزة أخرى ٠ ولا نستطيع أن نحصى المعجزات التى رافقت ميلاد المسيح وطفولته ٠ أما معجزاته فى أرض مصر، فلعل أبرزها هو ما يشير اليه أشعياء النبى قائلا « هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم الى مصر ٠ فترتجف أوثان مصر من وجهه ، ويذوب قلب مصر داخلها » (أش ١٩ : ١) ٠ وفعلا سقطت أوثان مصر بدخول الرب اليها ٠٠٠

كل هذا يدل على أن يد الرب قد بدأت تعمل ، وان ميلاد المسيح كان مقدمة لصلح السماء مع الأرض ، الصلح الذى قلنا ان أولى تباشيره كان ظهور الملائكة ٠ ويحسن أن نقف وقفة تأمل بسيطة عند ظهورات الملائكة هذه ٠٠٠

■ **أول ملاك ظهر وذكره الانجيل المقدس ، كان هو الملاك الذى ظهر لزكريا الكاهن ٠ انها لفتة كريمة من الرب يعطى بها كرامة للكهنوت** ، فيكون ظهور الملائكة أولا للكهنة ، بعد فترة الاحتجاب الطويلة ٠ ولفتة كريمة أخرى للكهنوت ، أن يظهر الملاك فى مكان مقدس « واقفا عن يمين مذبح البخور »، وفى لحظة مقدسة عندما كان زكريا البار يكهن للرب ويرفع البخور أمامه (لو ١ : ٨ـ١٠) ٠٠٠

جميل من الرب أنه عندما أرسل خدامه السمائيين ، أرسلهم أولا الى بيته المقدس والى خدام مذبحه الطاهر . ولا شك أن هذا كله يشعرنا بجمال المذبح الذى وقف الملاك عن يمينه فى أول تباشير الصلح . كم بالأكثر جدا مذبح العهد الجديد فى قدسيته الفائقة للحد ، حيث ملاك الذبيحة الصاعد الى العلو يحمل الى الله تضرعنا ...

نعود الى الملاك الطاهر الذى ظهر لزكريا الكاهن ...

كان ملاكا يحمل بشارة مفرحة. لقد عاد الرب يفرح وجه الأرض التى حرمت كثيرا من أفراحه فى فترة القطيعة والخصومة.

وهل هناك فرح أعظم من تبشير زوج العاقر بأنها ستلد ابنا « لم يقم بين المولودين من النساء من هو أعظم منه » (متى ١١ : ١١) ، ابنا سيكون « عظيما أمام الرب » (لو ١ :١٥)!!

عبارات « الفرح » تدفقت من فم الملاك ، فقال « لا تخف يا زكريا ، لأن طلبتك قد سمعت ، وامرأتك اليصابات ستلد لك ابنا ، وتسميه يوحنا ، ويكون لك فرح ، وابتهاج ، وكثيرون سيفرحون بولادته » .

وكانت ايحاءة جميلة من الرب فى تباشير هذا الصلح ، أن يسمى الطفل « يوحنا » ... وكلمة يوحنا معناها « الله حنان » !!

وكأن الله يقصد أنه وان تركنا زمنا ، الا أن محبته دائمة الى الأبد ، « مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئها » (نش ٨ : ٧) . وأنه وان حجب وجهه حينا ، فانه لا يحجب قلبه الحنون .

فعلى الرغم من فترة القطيعة بين السماء والأرض التى سبقت ميلاد المسيح ، وعلى الرغم من الخصـومة القائمة ، كان الله مايزال كما هو ، كله حنان وشفقة ... « الله حنان » أو «الله حنون » . لعل هذا يذكرنا بقول الرب من قبل « لأنه كامرأة مهجورة ومحزونة الروح دعاك الرب ، وكزوجة الصبا ... لحيظة تركتك ، وبمراحم عظيمة سأجمعك . بفيضان الغضب حجبت وجهى عنك لحظة ، وباحسان أبدى أرحمك ... »
(أش ٥٤ : ٦ـ٨)

انها نبوءة أشعياء عن مصالحة الرب لشعبه وكنيسته ، قد بدأت تتحقق ... تلك النبوءة العجيبـة ، الجميلـة فى موسيقاها ، التى بدأها الرب بنشيده العذب « ترنمى أيتها العـاقر التى لم تلد ... » (أش ٥٤ : ١) . ترى أكانت اليصابات « العاقر التى لم تلد » رمزا للكنيسة فى افتقاد الرب لها ؟ وهل كان اسم ابنها يوحنا « الله حنـان » رمزا أيضا لمصالحة الله لكنيسته ؟ وهل ترنم اليصابات « العـاقر التى لم تلد » كان بشيرا بتحقيق باقى مواعيـد الله اذ يقول لكنيسته فى نفس النشيد :

« كما حلفت أن لا تعبر بعد مياه نوح على الأرض ، هكذا حلفت أن لا أغضب عليك ولا أزجرك . فان الجبال تزول ، والآكام تتزعزع . أما احسانى فلا يزول عنك ، وعهد سلامى لا يتزعزع ، قال راحمك الرب » .

« أيتها الذليلة المضطربة غير المتعزية ، هأنذا أبنى بالأثمد

حجارتك ، وبالياقوت الأزرق أؤسسك • وأجعل شرفاتك ياقوتا ، وأبوابك حجارة بهرمانية ، وكل تخومك حجارة كريمة • وأجعل كل بنيك تلاميذ للرب ، وسلام بنيك كثيرا» (أش ٥٤ : ٦ـ١٣)

هل كان هذا الاصحاح الرابع والخمسون من نبوءة اشعياء موضع تأمل القديسة اليصابات في خلاص الرب القريب، طوال الستة أشهر التى مرت ما بين بشارة الملاك لزكريا وبشارة الملاك للعذراء ؟! ان هذه الفكرة تملأ قلبى ، وتضغط على عقلى بالحاح شديد ••• ولا شك أن هذه القديسة الشيخة التى كانت تحمل ابنا نذيرا للرب فى أحشائها ، كانت تشعر أنه ليس بأمر عادى هذا الذى حدث لها • واذ تتأمل فى هذا الفصل من اشعياء ـ الذى ينطبق عليها وعلى الكنيسة ـ يهز كيانها كله هذا « النبى الانجيلى » اذ يقول « ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل » (أش ٧ : ١٤) •

قلنا انه من تباشير الصلح بين السماء والأرض كان ظهور الملائكة للبشر • وكان الملاك الأول هو الذى بشر زكريا الكاهن

■ **أما الملاك الثانى ، فكان جبرائيل ، الذى بشر السيدة العذراء •**

نلاحظ أن هذا الملاك كان له مع العذراء أسلوب معين • لقد بدأها بالتحية ، بأسلوب كله توقير واحترام لها • فى بشارة زكريا لم يبدأه الملاك بالتحية ، وانما قال له « لا تخف

يا زكريا فان طلبتك قد سمعت » • أما فى بشارة العذراء فقال لها الملاك « السلام لك أيتها الممتلئة نعمة • **الرب معك** • » وعندئذ ـ بعد هذه المقدمة ـ بدأ الملاك فى اعلان رسالته • وحتى هذه الرسالة أدمجها بعبارة مديح أخرى فقال « لا تخافى يا مريم ، لأنك قد وجدت نعمة عند الله » ثم بعد ذلك بشرها بالخبر الذى جاء من أجله « ها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع ••• » •

انه أسلوب احترام عجيب يليق بالتحدث مع والدة الاله المجدة ، الملكة الجالسة عن يمين الملك •

لم يستطع رئيس الملائكة جبرائيل أن ينسى أنه واقف أمام أقدس امرأة فى الوجود ، وأنه واقف أمام أم سيده ، التى ستكون سماءا ثانية لله الكلمة • فخاطبها بأسلوب غير الذى خوطب به الكاهن البار زكريا •••

هنا نلاحظ أنه لم يبدأ فقط صلح بين السمائيين والأرضيين ، بل بدأ تقدير وتوقير من سكان السماء لسكان الأرض فى شخص أمنا وسيدتنا العذراء مريم ••• فمرحبا بهذا الصلح •

■ أما الظهور الثالث ، فكان ظهور ملاك الرب للرعاة •

هنا نجد تقدما ملموسا فى العلاقات ، اذ لم يقتصر الأمر على أن « ملاك الرب وقف بهم » بل يقول الكتاب أكثر من هذا « ومجد الرب •• أضاء حولهم » • وبعد أن بشرهم الملاك

«بفرح عظيم» يكون «لجميع الشعب» ، وبولادة «مخلص» ، « ظهر بغتة ـ مع الملاك ـ جمهور من الجند السماوى مسبحين الله وقائلين : « المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة » •

وهنا نسمع عبارات الفرح ، والمسرة ، والسلام ، والخلاص ••• وبدلا من ظهور ملاك واحد ، نرى جمهورا من الجند السماوى يسبحون •

انها تباشير الصلح العظيم ، المزمع أن يتم على الصليب • ونلاحظ أن هذا الصلح قد بدأه الله لا الناس •

الله يصالح البشرية

أول ما نتذكره فى هذا المجال ، هو أن الله يسعى لخلاص الانسان ، حتى لو كان الانسان لا يسعى لخلاص نفسه •

نلاحظ هذا منذ البدء : عندما أخطأ آدم وسقط ، لم يسع لخلاص نفسه ، بل نراه ـ على العكس من ذلك ـ قد هرب من الله ، وخاف من الله ، واختفى من الله • لم يحدث أنه سعى الى الله ، طالبا الصفح والمغفرة ، وطالبا النقاوة والطهارة • بل انه « لما سمع صوت الرب الاله ماشيا فى الجنة ••• » اختبأ هو وامرأته من وجه الرب (تك ٣ : ٨) • وهكذا أوجد حجابا وحاجزا بينه وبين الله • وبدأت الخصومة •

من الذى سـعى لخلاص آدم ؟ انه الله نفسـه ، دون أن يطلب آدم منه ذلك • آدم شغله الخوف عن الخلاص أو حتى عن مجرد التفكير فيه ••• وهكذا بحث الله عن آدم ، وتحدث معه ••• وأعطاه وعدا بأن نسل المرأة سوف يسحق رأس الحيـة (تك ٣ : ١٥) •

لقد اعتبر الله أن المعركة الدائرة هى بينه وبين الشيطان، وليسـت بين الشيطان والانسـان • اعتبر أن قضـيتنا هى قضيته هو • واذا بنسل المرأة الذى يسحق رأس الحية هو الله نفسه الذى أتى فى ملء الزمان من نسل المرأة • هو الله اذن الذى دبر قصة الخلاص كلها ، لأنه « يريد أن الجميع يخلصون، والى معرفة الحق يقبلون » (١ تى ٢ : ٤) • هو يريد خلاصنا جميعا ويسعى اليه ، حتى ان كنا نحن ـ فى تكاسلنا أو فى شهواتنا ـ غافلين عن خلاص أنفسنا !•••

فى قصة الخروف الضال ، نرى أن هذا الخروف الضال لم يسع لخلاص نفسه ، وانما ظل تائها وبعيدا • والراعى الصالح هو الذى جرى وراءه ، هو الذى فتش عليه وسعى اليه ، وهو الذى تعب من أجله الى أن وجده ، وحمله على منكبيه فرحا ، ورجع به سالما الى الحظيرة •••

وفى قصة الدرهم المفقود ، نجد نفس الوضع أيضا ••• الله اذن هو الذى يسعى جاهدا لخلاص الانسان •

فان تعطل خلاص الانسان ، يكون السبب بلا شك راجعا الى الانسان ذاته وليس الى الله •

وهذا الأمر واضح فى تبكيت الرب لأورشليم ، اذ قال لها « يا أورشليم يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين اليها . كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدوا » (متى ٢٣ : ٣٧) ... أنا أردت ، وأنتم لم تريدوا ...

مثال آخر هو عروس النشيد . الله هو الذى سعى لخلاصها « طافرا على الجبال ، وقافزا على التلال » . وقال لها « افتحى لى يا أختى يا حبيبتى يا حمامتى يا كاملتى ، لأن رأسى قد امتلأ من الطل وقصصى من ندى الليل » (نش ٥ : ٢) . وتكاسلت النفس فى الاستجابة ، وتعللت بالأعذار . فماذا كانت النتيجة ... كانت انها عطلت عمل النعمة فيها بعض الوقت، وصاحت فى ندم « حبيبى تحول وعبر » ...

تأكد انك ان كنت تريد الخلاص من الخطية ، فان الله يريد لك ذلك أضعافا مضاعفة ... المهم انك تبدى رغبتك المقدسة هذه . هناك عبارة لطيفة قالها أحد القديسين . قال « ان الفضيلة تريدنا أن نريدها لا غير » . يكفى أن نريد ، ارادة جادة ، والله يتولى الباقى . بل حتى هذه الارادة هو يمنحها لنا ، لأجل خلاصنا .

ومن القصص العجيبة عن سعى الله لخلاصنا ، ما يقوله الله - فى سفر حزقيال النبى - للنفس الخاطئة الملوثة ... « مررت بك ورأيتك مدوسة بدمك ... وقد كنت عريانة وعارية . فمررت بك ورأيتك واذا زمنك زمن الحب . فبسطت

ذيلى عليك ••• ودخلت معك فى عهد ـ يقول السيد الرب ـ فحممتك بالمـاء ، وغسلت عنك دماءك ، ومسحتك بالزيت ، وألبستك مطرزة ••• وجملت جدا جدا ، فصلحت لمملكة » (حز ١٦) •

تلك النفس المسكينة ـ لو تركت لذاتها ـ لبقيت عـلى حالها مطروحة وملوثة ، عريانة وعارية • ولكن الله فعـل من أجلها الكثير ، وأنقذها مما هى فيه •••

ولكن ليس معنى سعى الله لخلاصنا ، أننا نتكل على ذلك ونكســل ! كلا والا فانه يتحول ويعبر كما حدث مع عروس النشيد • انما يجب أن تتحد ارادتنا بارادته ، وعملنا بعمله• هو ينزل الى عالمنا ، ونحن نقدم له ولو مزود ليستريح فيه•••

ان الله يسعى لخلاصنا ، ويسعى ليصالحنا معه • عجيب فى هذه المصالحة ، أننا نرى الصلح يبدأ من جانب الله ، أكثر مما يبدأ من جانب البشر ••• انه درس لنا حينما تكبر قلوبنا على اخوتنا الصغار ، فلا نسعى لمصالحتهم بحجة أننا الكبار !! بينما قد وضع لنا الله مثالا حسنا ••

أ ـ الكبير يسعى لمصالحة الصغير

فى كل تباشير الصلح التى ذكرناها نرى أن الله هـو الساعى لمصالحة البشرية • النور الذى لا يدنى منه ، يسعى لمصـالحة التراب والرماد ! ملك الملوك ورب الأرباب يتقـدم

ليصالح عبيده ... نراه أنه هو الذى أرسل الملائكة للبشر وهو الذى بعث اليهم برسائل فى الأحلام . وهو الذى أرجع لهم روح النبوءة ، وهو الذى عمل على اعادة العلاقات كما كانت من قبل ... بل هو الذى أرسل اليهم ابنه الوحيد ليخلصهم ، من فرط محبته لهم .

وكما قال القديس يعقوب السروجى : انه كانت هناك خصومة بين الله والانسان . فلما لم يتقدم الانسان لمصالحة الله نزل الله ليصالح الانسان » .

ولم يحدث هذا فى الميلاد فقط ، وانما كان هو دأب الله دائما . نراه وهو الكبير العالى غير المحدود يسعى لمصالحة الانسان . يقول « أنا واقف على الباب وأقرع . من يفتح لى أدخل وأتعشى معه » (رؤ ٣ : ٢٩) . ونحن نتساءل فى عجب : كيف يارب تقف على الباب وتقرع . البشر هم الذين يذهبون الى بابك ، ويقبلون أعتابك . ويطلبون رضاك ... يقول الله : بل أنا الذى أذهب اليهم . أنا لست أبحث عن كرامة لى ، وانما أنا أبحث عن خلاصهم هم ، ولا يمكننى أن أستريح حتى أطمئن على خلاصهم .

حقا ، ما أعجب قلب الله المحب ، وما أعجب تواضعه ...

الله يرسل الأنبياء والرسل لكى يصالحوه مع البشر . يعترف بولس الرسول بهذا فيقول « نسعى كسفراء عن المسيح ، كأن الله يعظ بنا ، نطلب عن المسيح : تصالحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ٢٠) .

خفا : هل كان هناك عمل آخر للأنبياء سوى عقد صلح بين الله والناس · والله هو الذى طلب الصلح فأرسل أنبياءه! بل ما أعجب الرب فى سعيه للصلح اذ يقول : « **بسطت يدى طول النهار ، الى شعب معاند ومقاوم** » (رو ١٠ : ٢١) · ورغم معاندة الشعب مازال الرب باسطا يده ، يطلب صلحا معنا بل ان الله يقول للناس « هلم نتحاجج » (أش١:٢١) ·

الله هـو الـذى صـالح يونان النبي لمـا اغتم واغتاظ ، مع أن غضبه لم يكن حسب مشيئة الرب · أعـد له يقطينـة « فارتفعت فوق يونان لتكون ظلا على رأسه ، لكى يخلصه من غمه » وظل يجاذبه الحديث قائلا له « هل اغتظت بالصواب ؟ » ويونان يجيب « اغتظت بالصـواب حتى الموت » · وهكذا لم يزل به حتى أقنعه وصالحه (يونان ٤) ·

والسامرة التى أغلقت أبوابها فى وجهه ، لأن وجهه كان متجها نحو أورشـليم ، لم يتضـايق من تصرفها هذا ، ولم ينزل نارا من السماء ليحرقها كما اقترح التلميذان ، بل ذهب اليها مرة أخرى ليصـالحها ، وهى المخطئة · وبذل من حبـه ورعايته حتى أصلحها وصارت له (يو ٤) ·

وفى قصة الابن الضال ، نرى ان الابن الكبير لمـا غضب ورفض أن يدخل ، ورفض أن يشترك فى الفرح برجوع أخيه، مع ان غضبه لم يكن مقدسا ،ومع أن ارادته كانت ضد ارادة

الآب ، الا أن الاب ذهب اليه ليصالحه · وفى ذلك يقول الكتاب « فخرج أبوه يتوسل اليه » (لو ١٥ : ٢٨) ·

ومع ان كلام هذا الابن كان قاسيا فى حديثه مع أبيه،وكانت اتهاماته كثيرة وظالمة ، الا ان الأب احتمله ، وأطال أناته عليه حتى صالحه · ولم يقل له كيف وأنت صغير تكلمنى هكذا !

ولما أخطأ بطرس وأنكر المسيح ، لم ينتظر الرب حتى يأتى بطرس تائبا ومعتذرا ، بل هو الذى بدأه بالكلام ، وسهل الأمر عليه ، وأرجع العلاقات كما كانت ، بنفس الدالة ···

ان الرب لا يرى فى سعيه للصلح انقاصا لقدره أو اضاعة لكرامته ، بل على العكس انه يبرهن على محبته وعلى تواضعه فيزداد حب الناس له ·

وان كان الله بميلاده قد جاء ليصالحنا ، فاذهب انت يا اخى وصالح غيرك · لا تقل كيف أذهب أنا ؟ هم الذين يأتون · كلا ، فان الذى يقوم بالصلح ، هو الذى ينال بركته ··· ولا تقل كيف أصالح ابنى ، أو أخي الأصغر ، أو خادمي، أو مرؤوسي ، وأنا الكبير ؟!

اعرف تماما أن الكبير هو الكبير فى قلبه وفى حبه ، وهو الكبير فى فضائله وفى احتماله · والله لا يقيس الناس بمقياس السن أو المركز ، بل بنقاوة القلب ·

ومهما كنت كبيرا ، فلن تكون مطلقا فى درجة الله الذى سعى لمصالحة عبيده ومخلوقاته ! وحاذر من أن تطلب احتراما يليق بك ، حتى لو كان يليق بك المجد والكرامة !! بل اطلب محبة الناس وبركتهم • وفى ذكرى الميلاد تذكر تواضع الرب الذى نزل من سمائه الينا ، فكيف لا نتنازل بعضنا للبعض ...

وفى مصالحة الناس ، لا تفكر فى خطية غيرك ـ كبيرا كان ام صغيرا ـ وانما فكر فى نقاوة قلبك ، وضع أمامك تواضع الرب فى مصالحته للبشر •



دُروس مِن حَياة العذراء

اتضاع العذراء

فى الحديث عن الميلاد البتولى المجيد ، لا نستطيع أن نتكلم عن المجوس وهيرودس والرعاة ••• ونترك شخصية العذراء التى هى مصدر دسم عميق للتأملات الروحية • السيدة العذراء هى أطهر وأنقى وأقدس فتـــاة وجدت على ســـطح الأرض ، ولا يوجد لها شبيه •••

لقد وعد الله الانسان بالخلاص ، وقال له ان نسل المرأة سوف يسحق رأس الحية • ومرت آلاف من السنين الى أن تم هذا الخلاص • ولعل من أهم أسباب هذا الانتظار أن الرب كان ينتظر الفتـــاة القديســـة الطاهرة التى يمكنه أن يحـــل فى أحشـــائها •

كان ملء الزمان ينتظر هذه الفتاة القديسة • آلاف من النساء وجدن على الأرض • كل واحدة منهن كانت تشتهى ان يولد منها المسيح ، حتى أن العقم حسب فى ذلك الزمان عارا ••• ولكن الــرب لم يحل فى أحشـــاء أية واحدة من كل تلك الآلاف من النساء •

كان لابد من وجود فتاة من نوع معين ، تكون أهلا لأن

يأخذ الرب منها جسـدا : يسكن فى بطنها ، ويتغذى من دمائها ، ثم يولد منها ويرضع من لبنها ، ويعيش فى كنفها سنوات ... لم تكن أية فتاة تصلح لهذا الأمر . كان لابد من واحدة تتميز بصفات خاصة تؤهلها لهذا العمل العظيم ... وكانت العذراء مريم هى هذه الواحدة التى انتظرتها الأجيال الطويلة .

فما هى الصفات التى اهلتها لهذا المجد وهذه الطوبى ؟

كانت أول صفة تشترط فيها هى التواضع . فلماذا ؟ مـا هى أهمية التواضع بالنسبة للدور العظيم الذى عهد به الى العذراء ؟

ان المسـيح الهنا المتواضع ، كان لابد أن يختار فتاة متواضعة لكى يولد منها . ليس فقط من أجل جمال فضيلة التواضع ، وانما لأمر آخر أخطر من هذا بكثير ...

ذلك لأن الفتاة المتواضعة هى الوحيدة التى تستطيع أن تحتمل هذا المجد العظيم الذى به تدعى « والدة الاله » ...

حقا ، من هى التى تستطيع أن تحتمل هذا اللقب العظيم الذى لم يطلق على امرأة أخرى فى الوجود ؟ من تحتمل الحبل الالهى المقدس ، وتعلم أن الروح القدس يحل عليها ، وقوة العلى تظللها ، وتعلم أن القدوس المولود منها يدعى ابن الله ؟ من تحتمل هـذا ؟ ومن يمكنها أن تحتمل أيضـا ظهورات الملائكة ، وكثرة الرؤى والمعجزات والأعاجيب التى تصحب

وجود الله الكلمة فيها ومعها ؟ ... هل أية فتاة أو امرأة يمكنها أن تحتمل كل هذا المجد ، وكل مـا يقابلها من تطويب ومديح ؟!

ان لم تكن فتاة متضعة ومنسحقة النفس من الداخل ، فان كل تلك الكرامة لابد أن تهزها هزا وتتعبها . لذلك كان لابد من فتاة لها من عمق الاتضاع مـا يعادل علو تلك الكرامة. وهنا يظهر سمو العذراء .

في العالم نساء كثيرات لا يحتملن شيئا من المجد العالمي مهما كان تافها ، فكم بالحرى المجد الالهي أو المجد الروحي... امرأة ان ظهرت نتيجة المدرسة ، وكان ابنها أول فرقته ، لا يمكن أن تحتمل الفرحة ، وتظل تدور على البيوت ، وتقول في كل زيارة ولكل أحد « ابني أول فرقته » ... امرأة أخرى ان صار ابنها طبيبا ، أو حتى دخل كلية الطب، مجرد دخول، تصر على أن يسميها الناس « أم الدكتور » . وامرأة أخرى ان سافر ابنها الى الخارج في بعثة ، تحاول أن تخلق مناسبة أو غير مناسبة لكي تعلن على الناس ان ابنها سافر في بعثة ..! ماذا يحدث اذن لو ان ابن واحدة من هؤلاء كان هو الله ، حاشا .. لا شك انها تجن ، ولا تحتمل ... لهذا كان لابد أن يختار الله فتاة متواضعة تحتمل كل تلك الكرامة ...

هذا الأمر واضح في تسبحة العذراء اذ تقول « تعظم نفسي الـرب ، وتبتهج روحي بالله مخلصي ...**لأنه نظر الى**

اتضاع أمته » (لو ١ : ٤٨) • نظر الى اتضاع أمته ، الى مذلتها وعوزها ويتمها وفقرها ، ولم يختر فتاة أخرى جليلة القدر ، عظيمة فى نظر الناس • بل على العكس « انزل الأعزاء عن الكراسى ورفع المتضعين » •

نلاحظ هنا انها قالت « أمته » أى عبدته وخادمته • ونفس التعبير قالته للملاك « هوذا أنا أمة الرب » (لو ١ : ٣٨) • قالت « أمته » وهى « أمه » •••

ان البشارة العجيبة لم ترفع قلب العذراء ، بل ظلت كما هى فى انسحاقها • لم ترتفع اذ اختيرت دون كل نساء العالم فى جميع الأجيال ، لهذا المجد وهذه الطوبى • وانما بقيت كما هى فى اتضاعها ، كأن شيئا لم يحدث • ولما سمعت أن أليصابات حبلى فى شيخوختها ، أسرعت لتضع نفسها فى خدمتها •

مقابلة العذراء لأليصابات

سمعت العذراء القديسة من الملاك أن اليصابات حبلى فى شيخوختها ، وأنها فى الشهر السادس ، فأدركت انها لا شك محتاجة الى خدمة • ولم تستنكف من الذهاب اليها والوقوف الى جوارها لخدمتها •

لم تقل فى نفسها « كيف أذهب لخدمة هذه العجوز ، أنا الممتلئة نعمة ، أنا المختارة من بين نساء العالم كله ،

أنا المباركة فى النسـاء ، أنا التى أحمل فى أحشـائى الله الكلمة ... ! » . بل أسرعت ، وصعدت الجبال وهى حامل، وذهبت اليها فى اتضاع . وشعرت اليصابات باتضاع العذراء فى هذه الزيارة الكريمة . فقالت لها « من أين لى هذا ، أن تأتى أم ربى الى » (لو ١ : ٤٣) .

هذه الزيارة تعطينا فكرة سـامية عن مقابلات القديسين وعن طابع الزيارات المقدسة : زيارة عجيبة يعمل فيها الروح القدس ، كلها كلام روحى ، وتسبيح لله . لم يتكلم فيهـا أحد كلاما خارجا أو كلاما زائدا ، بل كله للبنيان . وزيارة فيها كل واحد يتضع للآخر : العذراء تتضع وتأتى لخدمة اليصابات ، واليصابات تقول فى اتضاع للعذراء « من أين لى هذا أو تأتى أم ربى الى » ...

وكانت زيارة تعطى فكرة عن مكانة العذراء العجيبة عند الله ... اذ أنه بمجرد كلمة السـلام التى ألقتها مريم العـذراء الى اليصـابات ، امتلأت اليصـابات من الروح القدس ، وتنبأت ، وارتكض الجنين بابتهاج فى بطنها . انظروا ماذا يقول الكتاب « فلما سمعت اليصابات سلام مريم ، ارتكض الجنين فى بطنها ، وامتلأت اليصابات من الروح القدس » (لو ١ : ٤١) . واعترفت اليصابات بهذا فقالت للعذراء « هوذا حين صـار صوت سـلامك فى اذنى ، ارتكض الجنين بابتهاج فى بطنى » .

صدقونى اننى وقفت مندهلا أمام هذه العبارات العجيبة ...!

ما هذه الموهبة العظيمة التى للعذراء !؟ مجرد أن يدخل سلامها فى أذن اليصابات ، تمتلىء اليصابات من الروح القدس ...! هذا عجيب حقا ... تصوروا أن انسانا يدخل الى بيت ، ويقول للموجودين « صباح الخير يا جماعة » ، فيمتلىء هؤلاء من الروح القدس ، ويتنبأون !! ... هكذا حدث من العذراء. وأرانا الرب أنه من أول وهلة للحبل المقدس ، أعطى هذه الكرامة العظيمة للمستودع الذى حل فيه ... ويزيد هذه الأعجوبة عمقا انها تمت بمجرد السلام : اعنى أن العذراء لم تضع يدها على رأس اليصابات ، ولم تقدم عنها صلاة ، ولا تشفعت فيها ، ولا باركتها بكلمة بركة . ولكن بمجرد أنها سلمت عليها حلت كل تلك البركات ...

هل أنت كذلك يا أخى : اذا زرت بيتا ، يمتلىء أهل هذا البيت من الروح القدس وتحل عليهم المواهب ... ويتبارك البيت بوجودك ؟ هل يكون وجودك بركة لهذا البيت، مثلما كان وجود العذراء فى بيت اليصابات ، ومثلما كان ايليا فى بيت الأرملة ، واليشع فى علية الشونمية . ليتك تكون كذلك ... أعود بك مرة أخرى لنتابع تأملاتنا فى زيارة مريم لاليصابات :

نلاحظ فى هذه الزيارة ، أن روح الاعلان والكشف بدأ يعمل فى القديسة اليصابات ... رفع الله عنها الحجاب فبدأت ترى المخفيات والمحجبات ... ! ما دلائل ذلك ؟ سنرى الآن :

قالت اليصابات لمريم « من أين لى هذا ، أن تأتى أم ربى الى » . كيف عرفت أن هذه هى « أم ربها » ؟ كيف عرفت أن الرب قد حل فيها ؟ أليس حقا أن القديسة اليصابات قد أدركت ما لم يستطع ادراكه أريوس ونسطور بعد مئات السنين على الرغم من مكانتهما العلمية والكهنوتية ؟! بل من أين لأليصابات أن تعرف بحبل العذراء حتى تقول « ومباركة هى ثمرة بطنك » ؟! ومن أين لها أن تعلم بأن العذراء « قد آمنت بما قيل لها من قبل الرب » ؟!

كيف اتيح لها أن تعرف ما قاله الملاك للعذراء ، والعذراء لم تكن قد أخبرتها بعد بشىء .. ؟! حقا ان « سر الرب لخائفيه » كما يقول الكتاب (مز ٢٥ : ١٤) . انها لم تعرف فقط « ما قيل لها من قبل الرب » وايمانها به ، وانما هى أيضا حيت العذراء بنفس تحية الملاك لها ، بنفس العبارة التى قالها لها الملاك « مباركة أنت فى النساء » (لو ١ : ٢٨ ، ٤٢) ... هذا عجيب ...

وأمام عظمة العذراء ، أو بالحرى أمام عظمة ابنها ، تصاغرت اليصابات وتضاءلت، ونست ما قيل عن عظمةابنها... لقد قيل عن ابنها انه « يكون عظيما أمام الرب » وانه « يرد كثيرين الى الرب الههم » وانه « يتقدم أمامه بروح ايليا وقوته » وانه « يهيىء للرب شعبا مستعدا » « وكثيرون سيفرحون بولادته » . ولكن كل هذا تضاءل أمام ما قيل للعذراء من قبل الرب .. نست اليصابات كل عظمة ابنها

وهى واقفة أمام أم ربها · وكما أن يوحنا اختفى لكى يظهر المسيح ، كذلك اختفت عظمته وهو جنين ، أمام عظمة الجنين الالهى · وعلى رأى الشاعر « فى طلعة الشمس من ذا يبصر الشهبا » ؟!

مكثت العذراء ثلاثة أشهر عند اليصابات ، بقيت معها طوال شهور الحمل الأخيرة حتى وضعت ··· هذا يظهر لنا صفة جميلة أخرى وهى **روح الخدمة عند العذراء** · كانت فتاة خدومة ، تحب خدمة الآخرين وتتعب لأجلهم · كانت كابنها الذى « لم يأت ليخدم ، بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » (مز ١٠ : ٤٥) ·

ومحبتها لخدمة الناس تابعتها باستمرار وكانت سبب المعجزة الأولى للمسيح فى عرس قانا الجليل · فلما رأت ان الخمر قد فرغت، وأصبح الأمر محرجا لأصحاب العرس اذ ليس لديهم ما يقدمونه للمدعوين ، تحنن قلب العذراء عليهم ، وتشفعت فيهم لدى ابنها الحبيب حتى يحل لهم الاشكال ثم قابلت الخدام وقالت لهم « مهما قال لكم فافعلوه » (يو ٢ : ٣ ـ ٥) · ومن أجلها أجرى المسيح المعجزة وفرح الناس فى عرسهم ·

سمو مكانة العذراء

هذه العذراء المتواضعة الخدوم هى التى اختارها الرب لانسحاق نفسها ، ورباها التربية التى تمهدها لهذا الانسحاق ·

تربية العذراء وأثرها فى سموها :

لم يختر الرب فتاة مدللة قد تربت فى القصور وتنعمت بمتع الدنيا ومادياتها • وانما اختار فتاة يتيمة مسكينة ، مات أبوها وهى فى السادسة من عمرها ، وماتت أمها وهى فى سن الثامنة • وعاشت العـذراء فى الهيـكل ، اذ كانت نذيرة للرب •

وكان لنذرها للرب قصة : كانت أمها « حنه » عاقرا • فبكت أمام الرب ، وصلت ، ونذرت أن تكون ثمرة بطنها للرب ، ان أعطاها الرب نسلا • وسمع الرب طلبتها وطلبة زوجها « يواقيم » ، الذى كان هو أيضا صـائما ومعتكفا ومصليا من أجل هذا الموضوع عينه • وبشرهما الرب بميلاد العـذراء • وحبلت حنه وولدت ابنتها القديسـة ، فوهبتها للرب ، وتربت فى الهيكل •

ان الكنيسـة المقدسـة وان كانت تحتفل دائما بأعياد استشهاد القديسين أو نياحتهم ، وليس بميلادهم ، الا انها بالنسبة الى العـذراء بالذات ، تحتفل بميلادها ، فى عيـدين وليس فى عيد واحد : تعيد بميلاد العذراء فى أول بشنس، كما تعيد للبشارة بميلادها فى ٧ مسرى . لقد كان ميلاد العذراء هو بدء الأفراح ، لأنه ميلاد المستودع الذى يحل فيه رب المجد ••• ولأنه علامة على أن الرب قد بدأ يرضى على الأرض ، وأنه قد قرب زمان افتقادها • انه مولد العذراء القديسة ابنة الأصوام والصلوات ، وابنة المواعيد أيضا •

ولما أتمت العذراء مدة طفولتها ، أخذتها أمها وسلمتها لهيكل الرب ، فعاشت فيه ، وتربت وسط التسابيح والمزامير والصلوات ، ووسط التقدمات والقرابين والذبائح والبخور. تربت مع الفتيات المختارات وكان الكل معجبا بها • وأقامت هكذا حتى الثانية عشرة من عمرها ، حيث نقلت الى بيت يوسف البار ، ليرعاها ويحفظها •••

تقديس الكنيسة للعذراء :

انها فى نظر الكنيسة أعلى من الملائكة ورؤساء الملائكة • نذكرها فى صلواتنا وألحاننا قبل الثلاثة العظماء المنيرين ميخائيل وجبرائيل وروفائيل رؤساء الملائكة • بل اننا نقول لها فى التسبحة •• ارتفعت يا مريم فوق الشاروبيم ، وعلوت يا مريم فوق السارافيم » ••• هى فى نظرنا السماء الثانية التى استحقت أن تكون عرشا لله الكلمة •

نذكرها فى الأجبية وفى القداس وفى كل كتب الكنيسة :

فى السنكسار ، وفى الدفنار ، وفى القطمارس ، وفى الابصلمودية ، وفى كتب المردات والألحان ••• فى صلوات الأجبية ، نذكرها فى القطعة الثالثة فى كل ساعة من ساعات النهار متشفعين بها • ونذكرها فى قانون الايمان ، اذ نقول فى مقدمته « نعظمك يا أم النور الحقيقى ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الاله ••• » •

نضع صورتها باستمرار على يمين الخارج من الهيكل ،

(مز ٤٥ : ٩) • ويقدم لها الكاهن البخور عند خروجه الهيكل وهو يقول « السلام لك أيتها الممتلئة نعمة ••• وعلى الجانب نضع صورة المسيح مع يوحنا المعمدان ، متذكر قول المرتل « قامت الملكة عن يمينك أيها الملك ••

نذكرها فى صلاة البركة ، أولا وآخرها • نذكرها جميع القديسين • فنبدأ البركة « بالصلوات والتضر والابتهالات التى ترفعها عنا كل حين والدة الاله القديس الطاهرة مريم » • وبعد أن نذكر أسماء الملائكة والرس والأنبياء والشهداء وجميع القديسين ، نختم بها البر فنقول « وبركة السيدة العذراء أولا وآخرا » ••• وه نذكرها فى صلاة المجمع فى القداس قبل جميع القديسين

ونعيد لها – غير عيدها الشهرى – سبعة أعياد رئيس فى السنة : عيد البشارة بميلادها ، وعيد ميلادها ، و دخولها الهيكل ، وعيد دخولها مع الرب الى أرض مصر ، و نياحتها ، وعيد صعود جسدها الى السماء ، وعيد بناء كنيسة على اسمها • أما عيدها الشهرى فهو فى اليوم الح والعشرين من كل شهر قبطى • يضاف الى هذا أننا نصو صوما على اسمها هو ١٥ يوما يهتم الناس به اهتم كبيرا •••

وما أكثر الكنائس والأديرة التى بنيت على اسم العذر غالبية الكنائس فى مصر على أسماء العذراء ، أو مارجرجس أو الملاك ميخائيل • لا نستطيع أن نحصى بالتدقيق الكنا

التى تحمل اسـمها ، أما من جهـة الأديرة : فالى جـوار دير العذراء للراهبات بحارة زويلة ، توجد على اسمها ثلاثة أديرة للرهبان : دير البراموس ، ودير السريان بوادى النطرون ، ودير المحـرق بالصـعيد ٠٠٠ ان العذراء قـد نالت شهرة كبيرة فى مصر ، وبخاصة لأنها زارت مصر مع ابنها الحبيب ، ولهـا فى كل مـكان ذكريات خاصـة بزيارتهـا أو خاصـة بمعجزاتها ٠

على أن السبب الأول لشهرة العذراء لم يكن هو معجزاتها، وانما قبل كل شىء فضائلها ٠٠٠ وسنحاول أن نتأمل بعض هذه الفضائل اذ لا يمكننا أن نلم بجميعها :

تكلمنا فى أول هذا الفصل عن اتضاع العذراء ٠ ونود الآن أن نتحدث عن صمتها وتأملها ٠

صمت العذراء وتأملها

انه صمت ممزوج بالاتضاع والتأمل ٠

لقد رأت هذه القديسة ما لم يره أحد ٠ رأت الكثير من المعجزات والرؤى ٠ ومع ذلك لم تتكلم ، ولم تفتخر ، لا قليلا ولا كثيرا ٠ بـل يلخص الـكتاب موقفهـا الوقور العجيب ، وتصرفها الروحى العميق ، فى عبارة واحدة هى :

« وأمـا مريم فكانت تحفظ جميع هذا الـكلام ، متفكرة به فى قلبها » (لو ٢ : ١٩) ٠

ترى العذراء ملاكا يبشرها ،وتسمع عن ملاك ظهر لزكريا، وعن ملاك ظهر للرعاة مع جمهور من الجند السماوى مسبحين. ولعل يوسف قد أخبرها بأمر الملائكة الذين ظهروا له فى الأحلام . ولكنها لا تتحدث عن شيء من هذا ، بل « تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به فى قلبها » . لم تفتخر بشيء من جميع الأعاجيب التى حدثت لها ، بل لفتها جميعها بغلاف من الصمت ... **يخيل الى انها لم تتكلم الا عندما تحدثت للانجيليين القديسين عندما كتبوا أناجيلهم .**

أعاجيب كثيرة حدثت معها فى مصر ، ومع ذلك لم تتحدث عنها مريم ، ولم يذكرها لنا الانجيليون ، بل كانت القديسة مريم « تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به قلبها » ... لم نعرف أعاجيب الرب فى مصر الا عن طريق التقليد ، عن طريق التاريخ . حفظه لنا الذين رأوه ، والذين حدثت معهم المعجزات . أما مريم فظلت صامتة ...

لا شك أن معجزات كثيرة أخرى قد أجراها الرب فى فترة الثلاثين سنة من حياته التى سبقت خدمته . وكان يعيش هذه الفترة فى بيت العذراء . ولا شك أن أعاجيب أخرى رأتها العذراء فى حياة الرب ، فى كماله فى تصرفاته ، فى سيرته المقدسة ، فى علاقاته مع الناس . ولكنها صمتت ولم تذكر لنا شيئا من كل ذلك وكانت تحفظ جميع هذه الأمور متفكرة بها فى قلبها . وبقيت هذه الثلاثين سنة من حياة المسيح لغزا ...

كان التأمل بالنسبة اليها أعمق من الحديث والاعلان .

كان التأمل غذاء لروحها ، أمـا الحديث ففيه تشتيت لتأمل القلب • أو لعلها من عجب ما رأته ، كانت فى حالة من اندهش فى الروحيات لا تسمح بالكلام ، أو يقف الكلام معها عاجزا عن التعبير • أو لعل العذراء أسكتت فمها ، ليتكلم قلبها ، مع الله •

مـا أعجب قلب العـذراء ، كيف أمـكنه أن يتسع لـكل مـا رأته وسـمعته ••• ان قلبها كنز عجيب للروحيات • ما أجمل قول داود « خبأت كلامك فى قلبى » (مز ١١٨)•

لماذا صمتت العذراء ؟ هل بدافع من التأمل ؟ أم بدافع من الاتضاع ؟ أم لانشغال قلبها بالصلاة الدائمة فما بقى لها وقت للكلام • ومن لذة حـديثها مع الله ، لم تجـد فرصـة للحديث مع الناس • أم أنها صمتت زهدا فيما قـد تسمعه من مديح الناس ، اذا فتحت فمها وتكلمت ، وكشفت ما فى أعماقها من أسرار ••• فى الواقع يا أخوتى لست أجد جوابا عن شىء من هذه الأسئلة • كل ما أستطيع أن ألفظ به هو أن أقول لأمنا القديسة :

ان فى صمتك سرا لن يرى   قدس أقداسه الا الصامتون

يذكرنى صمت العذراء الى حد ما بصمت آبائنا السواح :
لا شك أن أولئك القديسين السواح قـد رأوا فى حيـاتهم الشىء الكثير من عمل الله معهم ، ومما وهبه لهم من تأملات ، وما كشفه لهم من اعلانات • ومع كل ذلك ظلت حياتهم مغلفة بالصمت • ولو تحدثوا عن خبرات يوم واحد ، أو روحيات

يوم واحد من حياتهم ، لامتلأت مكتباتنا بالمجلدات ، لـكنهم رأوا حياتهم مع الله لونا من ألوان المتعة الروحية ، ولم يحبوا أن يقطعوا تلك المتعة بالحديث ... هكذا العذراء .

ان العذراء الصامتة المتأملة ، هى درس عميق لنا .

انه درس تقدمه لنا هذه القديسة العظيمة التى تربت فى الهيكل ، وعاشت طفولتها وشبابها فى حياة الصلاة . وعندما اختارها الرب لخدمته ، كانت ممتلئة من الروح ، عـلى الرغم من صغر سنها ...

ليتنا مثلها ، نتأمل كثيرا ، ونتحدث قليلا . ليتنا نقضى الوقت فى التأمل والصلاة ، بدلا من الكلام . **ان القديسين الذين أتقنوا الصمت ـ ومنهم العذراء ـ صمتوا مع أن كلامهم كلام منفعة . ونحن كثيرا ما نتكلم ، ولا منفعة من كلامنا ، بل قد يعثر وقـد يضر** . كم هـو الأحرى بنا ـ فى وقت الكلام غير النافع ـ أن نضع أمامنا نصـيحة أيوب الصديق حينما قال « ليتكم تصمتون صمتا ، فيكون ذلك لكم حكمة » (أى ١٣ : ٥) . ما أجمل أن نتعلم من هذه الطفلة القديسة الوقورة التى تصرفت هكذا فى عمق الروح ، وهى فى حوالى الرابعة عشرة من عمرها ...

ان مريم العذراء قد عوضت سمعة حواء . أقامت توازنا لسمعة المرأة فى العـالم . انها أرجعت للمرأة الـكرامة التى فقدتها . لولاها لكان جنس المرأة عموما يعيش فى وصمة عار . أما بسبب العذراء فقد ارتفعت قيمة المرأة . وكما أنه بسبب

سقوط المرأة قد دخلت الخطية الى البشر جميعا ، كذلك بامرأة أخرى هي العذراء القديسة أشرق نور المسيح على العالم ·

وهكذا وجدنا في العهد الجديد كرامة واضحة للمرأة···

نساء كثيرات كن يخدمن السيد المسيح · وفي ذلك نجد أن لوقا البشير بعد أن ذكر أسماء مريم المجدلية ، ويونا ، وسوسنة ، قال « وأخر كثيرات كن يخدمنه من أموالهن » (لو ٨ : ٣) · وقد ذكر الكتاب اسمي مريم ومرثا أختي لعازر ، وقال في ذلك «وكان يسوع يحب مرثا واختها ولعازر» (يو ١١ : ٥) · وقد مدح السيد المسيح المرأة الكنعانية ، وقال لها « **يا امرأة ، عظيم هو ايمانك** » (متى ١٥ : ٢٨) ·

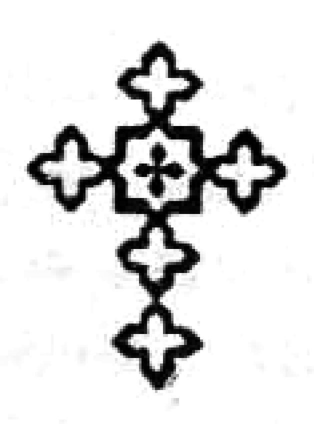
ودافع عن المرأة التي ضبطت في الخطية ، وأظهر أنها لم تكن أشر من الرجال الذين ضبطوها · ودافع عن المرأة التي بللت قدميه بدموعها ، وشرح للفريسي الذي لامها في قلبه كيف انها أفضل منه (لو ٧) · ودافع الرب أيضا عن المرأة التي سكبت الطيب على رأسه · وقال لتلاميذه « لماذا تزعجون المرأة فانها قد عملت بي عملا حسنا ··· الحق أقول لكم **حيثما يكرز بهذا الانجيل في كل العالم ، يخبر بما فعلته هذه تذكارا لها** » (متى ٢٦ : ١٣) ·

وحول الصليب نجد النساء يتبعن الرب في الوقت الذي هرب فيه تلاميذه · وفي هذا يقول القديس متى الانجيلي « وكانت هناك نساء كثيرات ينظرن من بعيد ، وهن كن قد تبعن المسيح من الجليل يخدمنه · وبينهن مريم المجدلية »

ومريم أم يعقوب ويوسى، وأم ابنى زبدى » (متى ٢٧ : ٥٥ ـ ٥٦) • **وتحت الصليب كانت غالبية الوقوف من النساء** • وفى ذلك يقول يوحنا الحبيب التلميذ الوحيد الذى تبع المسيح الى الصليب « وكن واقفات عند صليب يسوع : أمه ، وأخت أمه مريم زوجة كلوبا ، ومريم المجدلية » (يو ١٩ : ٢٥) •••

ويذكر لنا الكتاب كيف ذهبت النسوة مبكرات الى القبر• **وكيف أن المسيح فى قيامته ظهر أولا لمريم المجدلية** (مر ١٦ : ٩) • وكيف أنه كلف هذه المرأة المجدلية مع مريم الأخرى أن تذهبا لتبشير تلاميذه (متى ٢٨ : ١٠) • وكيف عاد فكلف المجدلية بهذه المهمة مرة أخرى (يو ٢٠:١٧) **وهكذا عرف تلاميذ المسيح بشرى القيامة أولا من المرأة** •

وما أكثر النساء اللائى ساعدن الرسل فى خدمهتم وكرازتهم • وما أكثر أسماء النساء اللائى ذكرهن القديس بولس فى رسائله • وفى علية صهيون كان التلاميذ يصلون ومعهم النساء (أع ١ : ١٤) • **وأول كنيسة فى العالم كانت بيت امرأة هى مريم أم القديس مرقس حيث كان التلاميذ يصلون (أع ١٢ : ١٢)** •



الثمن ٢٠ قرشاً





إن ميلاد السيد المسيح يثير فى القلب مشاعر وأفكار، أعمق من أن يسطرها قلم.

وإذ نحاول أن نصوغها فى ألفاظ، ليت الألفاظ تستطيع أن تستوعب وأن تشرح.

وخلال ذلك نسأل عن:

فاعلية الميلاد فى حياتنا،

ما مدى إستفادتنا روحياً من إخلاء الرب لذاته؟

ومن مجيئه فى ملء الزمان؟

ومن تسميته (عمانوئيل)؟

ومن روحيات أمنا العذراء؟

إن الصفحات التى أمامك، تحاول أن تطرق كل هذا.

شنوده الثالث